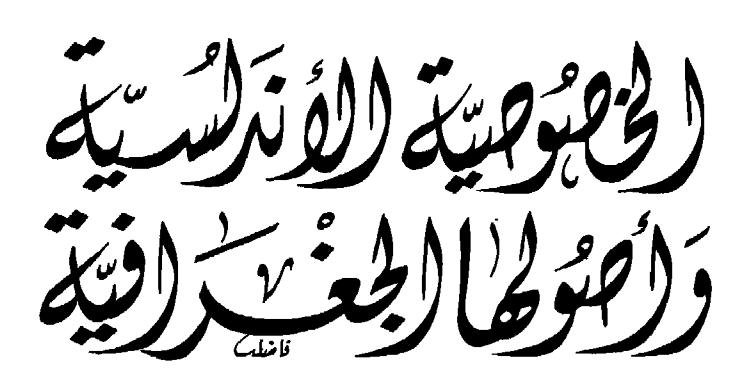
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دكتور عبادة عبدالرحمن رضا كحيلة

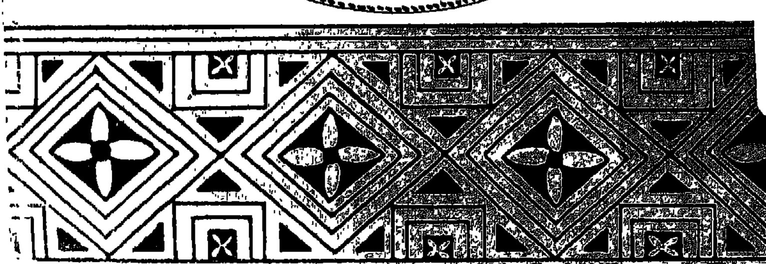
دراسات

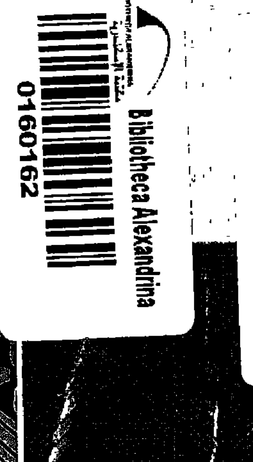













Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية

تأليف
دكتورعبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
١٩٩٥



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى- اسباتس- الهرم- ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأندلس الإسلامية خصوصية حكمتها حقائق الجغرافيا ووقائع التاريخ . وقد طبعت هذه الخصوصية الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس بطابع خاص ؛ حقيقة أن وشائج القرى القوية ربطت الأندلس بالحضارة الأم ، فكانت الحضارة الأندلسية الإسلامية جزءا عضويا من الكل العربى الإسلامى ، بيد أن هذه الحقيقة لم تقف حائلاً دون بروز الطابع الأندلسى فى الفن والأدب والفلسفة ، مثلما تجلى هذا الطابع الخاص واضحًا فى القسمات التاريخية على كافة الأصعدة والمستويات .

وعلى الرغم من التشابك والتداخل المحُيِّر فى الشخصية الأندلسية فان هذه الدراسة التى نسجها بمهارة الدكتور عبادة عبد الرحمن كُحيلة قد نجحت فى أن تطوف بنا فى سياحة علمية شائقة فى ثنايا التاريخ الأندلسى ومنحنياته ومنعطفاته ، وقد اقتفى أثر نظرية الراحل العظيم الدكتور جمال حمدان فى نظريته المثيرة عن عبقرية المكان ، وقدم لنا دراسة سهلة وعميقة تستحق عن جدارة وصفها . بصفة «السهل الممتنع» . ففى أسلوب أدبى راق صب الدكتور عبادة مادته العلمية العميقة ؛ وجاء النتاج ممتعًا ومثيراً ومفيداً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتشعر «دار عين للدراسات » بالزهو وهي تقدم هذه الدراسة الصغيرة في حجمها ، الكبيرة في مبناها ومعناها ، لتكشف للمسلمين والعرب صفحة طويت من صفحات أمجادهم في الماضي الذى لم يكن بعيداً تمامًا . لعل وعسى .

هذه الدراسة واحدة ضمن سلسلة «دراسات عين» التى أصبحت باقة من الدراسات المتميزة فى ميدان الدراسات الإنسانية والاجتماعية ، نقدمها للقارئ العربى الكريم لعلها تكون لبنة مفيدة فى بناء ثقافى جديد للأمة العربية التى تستحق ، بحكم تاريخها وإسهامها فى حضارة البشر ، حاضراً أفضل ومستقبلاً أحسن .

والله الموفق والمستعان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية

تشارك الأندلس[1] غيرها من الأقطار ، من حيث كونها جزءا من هذه الأقطار ومن حيث كون حضارتها جزءاً من حضارة هذه الأقطار ، وهى الحضارة الإسلامية .

تأثرت الحضارة الإسلامية فى كل قطر إسلامى بخصوصية هذا القطر، بحيث صار طابعها فى أحدها يفارق طابعها فى آخر ، على نحو أو آخر .

وحديثنا هنا عن الخصوصية الأندلسية ، هذه الخصوصية تفسر (أوتشارك فى تفسير) تميز الأندلس وتمايزها من ناحية ، وتفسر (أو تشارك فى تفسير) مأساتها من ناحية أخرى .

هذه الخصوصية لها أصولها ، ربما نوه بها فضلاء قبلنا[1]، لكننا ننوه ببعض هذه الأصول ، وهى الأصول الجغرافية ، وغير خاف وطادة الصلة بين الجغرافية والتاريخ .

١- نعنى بالأندلس هنا أسبانيا الإسلامية ، أى الأراضى التى خضعت من شبه الجزيرة الأيبيرية لسلطان المسلمين ، مع تفاوت السلطان بين عصر وآخر ، وفى حال الإشارة إلى الأندلس تخصيصا أى الأندلس الجغرافى ، نذكر السهل الأندلسى ، أما فى حال الإشارة إلى شبه الجزيرة بأسرها نقول هسبانيا أو أسبانيا أو آيبيريا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثمة قضية جدلية ، شغل بها أجيال من علماء الجغرافية ، هى قضية الحتمية Determinism والإمكانية Possibilism ، ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه القضية ، لكننا نقرر أن الجغرافية إذا لم تكن العنصر الفاعل ، فهى عنصر فاعل ، ويتنامى عمل هذه الفاعلية فى العصور السابقة لعصرنا الحديث ، باعتبار التنامى البطىء فى التكنولوجيا ، وهى خصيصة من خصائص العصور الوسطى .

وقد اهتم ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) [٢] بدراسة البيئة الجغرافية فى مقدمته ، وجعل الظواهر الاجتماعية نتيجة لهذه البيئة على نحو من الأنحاء ، كما جعل لها أثرا واضحا فى تمييز المجتمعات بعضها عن بعض .

وإذا كان المسلمون لدى مقدمهم إلى الأندلس قد اصطحبوا معهم وراءً ثقافيًا كان يهذب من الوراء الجغرافى ويحجبه أحيانًا إلا أن هذا الوراء الثقافى لم يكن بقادر على أن ينهى دور الوراء الجغرافى ، الذى لايلبث أن يتصاعد ، خصوصا فى أوقات الأزمات .

١- وبخاصة الأستاذ الفاضل أحمد مختار العبادى فى مقاله القيم " الاسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة الأوربية " مجلة عالم الفكر م١٠ ع٢، ١٩٧٩م ص ص٥٩- ١١٠ .

٢- المقدمة . تحقيق على عبد الواحد وافى . القاهرة ، دار النهضة مصر ١٩٧٩ جـ١ صص٢٤٠ - ٣٩٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتناول هذا البحث البيئة الأندلسية ، من حيث علاقتها بالخصوصية الأندلسية ، ونركز - بداءةً - على الجغرافية الطبيعية [١].

والحق أن الحديث عن جغرافية الأندلس مشكلة ، لأنه لايوجد كتاب مستقل عنها ، بل إن المقدمات الجغرافية لبعض الكتب التاريخية مقتضبة ومحدودة ، وتتسم بالعمومية ،.وتتسم أيضًا بمسحة رومانسية[٢].

-1-

هسبانيا Hispania - أو أسبانيا España - ثالثة أشباه الجزر الكبيرة في بحر الروم ، وكانت في العصور القديمة تشغل موقعًا متطرفًا في نهاية المعمور من الأرض غربًا ، وانعزلت أو كادت أن تنعزل عن غيرها من الأقطار خارجها . وكان القسم الشرقي منه هو الذى يستقبل تيارات الحضارة والهجرة ، في حين كان انتقال هذه التيارات غربًا أمرًا صعبًا ، بسبب القلب الميت في الميسيتا La Meseta ، وبسبب الجبال

١- يدور هذا البحث حول محورى الموقع Situation والموضع Site وهو منهج اقتبسناه من العالم الكبير جمال حمدان فى كتابه الرائد "شخصية مصر" .

٢-راجع على سبيل المثال البكرى : جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك) تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، دار الارشاد ، ١٩٦٨ م . ص٧٠ ، المقرى : نفح الطيب . تحقيق إحسان عباس . بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ ، جـ١ ، ص١٢٥ وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى تنهض لدى الساحل ، فضلا عن أن الأنهار السريعة الجريان، كانت عائقًا فى سبيل الملاحة فى معظم شهور السنة [١].

على أنه إذا كان ثمة اتصال بين أسبانيا والأراضى التى تليها شمالا فان هذا الاتصال كان يدنى منه البرتات Pirineos [٢]،وهى سلسلة جبال عالية ووعرة ، تجعل المرور عبر بواباتها الأربع أمرا صعبا[٣]، ويزيد من صعوبته أن أقام بالجهة الغربية من هذه الجبال اليشْكُنس Los Vascos ، وكانوا يضايقون من يحاولون عبور البرتات من ناحيتهم ، وفعلوا ذلك مع شارلمان Charlemagne (٧٦٨-٨١٤م) وأصابوه بنكبة كبيرة فى

١- Cambridge Economic History of Europe . 1971 . P. 432

ولم ينجح المجوس أو الأردمانيرم (وهم الفايكنج Wikingos) فى اقتحام هذه الأنهار رغمًا عن مهاراتهم الملاحية العالية . راجع بشأن غزواتهم . ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، القاهرة ، دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٢ ، ص ص٧٨ - ٨٣ ، ابن حيان : المقتبس س٢، تحقيق محمود على مكى ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، ١٩٧٣ ، ص٣٠٧ وما بعدها ، المقتبس ، قطعة من عهد الحكم المستنصر تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ .ص ص ٢٤ ، ٦٦، ٦٧، ٩٢ العذرى : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الأهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ص ٩٨ وما بعدها .

٢- وتعرف خطأ بالبرانس .

٣- الإدريسى : نزهة المشتاق . تحقيق تشيرولى وآخرين ، روما ، ١٩٧٠ جـ٧ ، ص٧٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رونسفال Roncessvalles [١] . وقد تنبه العرب إلى ذلك فكانوا في معظم غزواتهم ، يعبرون هذه الجبال من الناحية الشرقية ، ويسيرون مع الساحل ، فيجتازون إلى افرنجة .

ومع ذلك فان جبال البرتات لم تمنع الاتصال بين قطالونية Catalonia في شمال شرقي أسبانيا وبين سبتمانيا Septimania على الساحل الفرنجي ، وينقل البكري (ت ٤٨٧ هـ) [٢] عن قسمة قسطنطين زن سبتمانيا جزء من الأندلس ومدينتها ، نربونة Narbonne ، وقد سمح الاتصال بين قطالونية وسبتمانية بتكوين الثغر الاسباني Narca Hispanca وقصبته برشلونة (أو برشنونة) Barcelona في مطالع عصر الإمارة الأموية ، وقد تميزت هذه المنطقة عبر العصور بشخصيتها المستقلة وبلغتها التي تمت بصلات من القربى مع لغة جيرانها الشماليين [٣].

١- أو شيزروا كما يرسمها الإدريسي ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٢- المصدر نفسه ، ص ص ٥٩ ٦٠ .

٣- لم تلعب قطالونية دورا رئيسيا في حركة الاسترداد Reconquista ، وظلت تابعة كنسيا لنربونة حتى سنة ١٠٩١ م ، وكانت تتبع التقويم الفرنجي ، وظل الأسبان - مسلمين ونصارى - يطلقون على أهلها حتى القرن الثاني عشر الميلادي تعبير فرنجة أنظر :

Ame`rico Castro : Espana en Su historia , Cristianos , Moros y Judios. Buenos Aires , Editorial Losada, 1948. P. 80 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن هذا الاتصال بين قسم من أسبانيا وبين ما يليه شمالا ، لم يكن معناه استمرار هذا الاتصال بين الأراضي جنوبي البرتات وشمالها، كما أن التأثيرات الوافدة من إفرنجة نحو قطالونية ، لم تستمر إلى سائر أقاليم اسبانيا ، بسبب التقطع الجغرافي الداخلي ونشير إليه بعد .

وتنفصل أسبانيا عن بلاد المغرب جنوبها بحرا ، ولكن ثمة اتصالا بين السهل الأندلسي وبين العدوة ، وتروى الأساطير أن العدوتين كانت متصلتين في القديم إلى أن فصل بينهما الاسكندر[١] . ولايبدو الاختلاف كبيرا بين جبال الأطلس في الريف المغربي وبين جبل الثلج (شُلير) Sierra Nevada في أسبانيا [٢](والفاصل بين العدوتين يسمى المجاز أو الزقاق ، مما يدل على قرب المسافة ، ويذكر المسعودي [٣](ت ٣٤٦ هـ) أن الناس يعبرونه من غدوة إلى الظهر ، وفي كتاب موسى بن نصير إلى الخيفة الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ / ٧٠٥م - ٩٦ هـ / ٧١٥هـ) حين وجده متخوفا من عبوره إلى الأندلس " إنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر " [٤].

١- الإدريسي : المصدر نفسه جـ٥ ص ص٥٢٦ - ٥٢٧ ، المقرى : المصدر نفسه، جـ١ ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

٢- البكري : المصدر نفسه ص٨٥ .

٣- مروج الذهب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . بيروت، دار المعرفة، جـ١ ، ص١١٩ .

٤- مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، نشر لافرينتي ألكنترا. مجريط، ١٨٦٧ ، ص٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبوجه عام فان عدوتي المضيق اجتمعتا لدى سلطة واحدة في أزمنة مختلفة ، ففي العصر الروماني كانت ولاية مرطانية الطنجية Mauretania Tingtana تضم سواحل العدوتين [١] وعندما اشتد ساعدالأمويين بعد اعلان الخلافة ، استولى الناصر (٣٠٠هـ / ٩١٢م - ٣٥٠ هـ / ١٩٦١م) على سبتة ، وأطاعه بنو إدريس وملوك زناته [٢]، وفيما بعد سقطت عدة من معاقل المغرب وثغورها البحرية قبل سقوط غرناطة Granada نفسها .

وكما كانت الحال بالنسبة لقطالونية ، فان التأثيرات القادمة من الجنوب كانت تضعف حين تجاوز حدود السهل الأندلسي ، وفي الحالين جعلت هذين الاقليمين يتفردان في خصائصهما عن سائر أقاليم أسبانيا.

-2-

الموقع المنعزل البعيد هيأ للأندلس الفرصة لأن تتخذ لنفسها في وقت مبكر طريقا مستقلا عن الدولة الاسلامية العامة ، ويعود ذلك إلى سنوات قليلة بعد الفتح ، فلا نجد في مصادرنا خبرا عن أن الأندلس أرسلت مالا إلى حاضرة الدولة ، مع أنها قطر عظيم الجباية [٣]، كما أن

١- (1) O' Callaghan , J . F : A history of medieval Spain . Cornell , 1975 P . 30 .

٢- ابن عذارى : البيان المغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة د . ت جـ٢ ، ص٢٠٤ وما بعدها .

٣- حسين مؤنس : فجر الأندلس : القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ . ص٦٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أهل الأندلس كانوا غالبا ما يختارون ولاتهم [١]، وكانت الدولة - ويمثلها أحيانا ولاة المغرب - ترضى بهذا الواقع الذى لم يكن بامكانها تغييره أو كان صعبا تغييره ، بل ربما هي بسكوتها أضفت عليه طابعا شرعيا .

هذا الاستقلال لم يلبث أن تم تقنينه لدى ولاية عبد الرحمن الداخل ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م - ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م الذى نجح فى أن يقرر مبدأ الإمارة دون تفويض [٢]، وصارت هذه حال ولده من بعده ، إلى أن نجح حفيد بعيد له ، فى أن يتسمى بالخلافة ، نافيا لحق العباسيين وحق الفاطميين - معا - فيها .

لم يكن انفراد الداخل بالأندلس مجرد إعلان عن انفراد أسرة بعينها (الأموية) بهذه البلاد عن أسرة أخرى (العباسية) ، إنما كان يعنى فى المحل الأول ، أن قطرا إسلاميا بعينه (الأندلس) اتخذ لنفسه طريقا مستقلاً عن الدولة الإسلامية العامة (بغداد) .

وبطبيعة الحال فان هذه الخطوة لن تمر دون رد فعل من جهة المركز ، فقد سعى هذا الأخير غير مرة لأن يعيد الوضع إلى ما كان عليه ، واستعان على ذلك بعناصر طامحة من سكان هذا القطر ، لكن هذه

١- المرجع نفسه ، ص٦٠٩ .

٢- لمزيد من التفاصيل راجع الفصل الثالث من كتابنا أندلسيات ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، ص ص ٧١ - ٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحاولات لم تنجح ، وانتهى الأمر بأحد هؤلاء الطامحين [1] ، إلى أن بعث برأسه واللواء الذى رفعه إلى الخليفة الذى أرسله ، وهو يحج إلى بيت الله الحرام [2].

حرص حكام الأندلس على استقلال بلادهم ، وأداهم حرصهم إلى حد أنهم كانوا يمنعون أهل دولتهم من السفر لأداء فريضة الحج ، ولانسمع أن أحدا من أهل الدولة بالأندلس خرج حاجا ، إلا بعد ذهاب بنى أمية ، وتفرق أمر الأندلس [3].

ويطول بنا الحديث عما تلا من صراعات بين أمويى الأندلس وفاطمى المغرب ، وانتهت هذه الصراعات إلى أن أضحى المغرب الأقصى منطقة نفوذ لخلافة قرطبة .

على أن تحقق الاستقلال السياسى لم يكن بكاف بالنسبة للأندلسيين، وظهر ميل واضح لدى الدولة والشعب معا إلى التوحد فى مذهب دينى محدد ، هو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه (ت ١٧٩هـ). هذا التوحيد كان قمينا بأن يجعل الأندلسيين متميزين إزاء إخوانهم المشارقة ، ويكفل لهم وحدة داخلية فى جزيرة تميل - كما نوضح بعد إلى التعدد - ويشاركهم هذه الجزيرة قوم يختلفون عنهم دينيا

١- العلاء بن مغيث اليحصبى (أو الحضرمى٩ من أهل باجة Beja وجرت حركته فى سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣ م .

٢- ابن القوطية : المصدر نفسه ص ص٥٤ - ٥٥ ، أخبار مجموعة ص ص١٠١- ١٠٣ .

٣- ابن خلدون : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٧٣٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسياسيا ، ويسعون إلى طردهم منها ، وربما كان أمرا له دلالته أن مذهب مالك ، دخل إلى الأندلس في حياة مالك نفسه ، وفي حياة الأمير الداخل وولده هشام [١].

ويلوح لنا أن ثمة ترابطا بين سيادة مذهب مالك في أسبانيا الاسلامية في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وبين سيادة عقيدة شنتياقب Santiago de Compostela في أسبانيا النصرانية في أوائل القرن التاسع الميلادي ، فان نصارى الشمال وجدوا في هذه العقيدة توحيدا سياسيا - دينيا لهم إزاء أخصامهم الذين بسبقوهم إلى هذا التوحيد ، وقد صار شنتياقب (القديس يعقوب) يلي عندهم المسيح عليه السلام نفسه ، يسبق في ذلك القديس بطرس ، وصارت ليعقوب هذا راية خاصة يخوض النصارى تحتها معاركهم ضد المسلمين ، وصار من ألقابه Mat-amoros أي قاتل المسلمين [٢]، ولم يلبث أن اتسع مجال هذه العقيدة ، فكان ضريح يعقوب محجا لنصارى يأتون من خارج شبه الجزيرة .

يصف الإدريسي (ت حوالي ٥٦٠ هـ) كنيسة شنت ياقوب فيقول :

" وهذه الكنيسة مشهورة مقصود نحوها محجوج إليها ، والروم يأتونها من جميع الأقطار ، يحجون إليها ، وليس بعد كنيسة بيت المقدس كنيسة أعظم منها ، وهي تضاهي كنيسة قمامه (يقصدكنيسة القيامة) ، في حسن البناء وسعة الغناء وكثرة الأموال " .

١- Castro : Op cit . p . 112 .

٢- المصدر نفسه ، جـ٧ ، ص٧٢٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونعاود مذهب مالك .

تفرد الأندلسيون بالتحمس لمذهب مالك تحمسا لانجده عند غيرهم ، ويتعجب المقدسي (ت ٣٥٥هـ) من أن " أهل الأندلس لايعرفون سوى كتاب الله وموطأ مالك " ويروى - على لسان سلطانهم - " لا أحب أن يكون في عملي مذهبان " [١].

ويصعب علينا أن نحصي مظاهر الأندلسيين لمذهب مالك دون غيره من مذاهب أهل السنة ، فعندما أتى بقي بن مخلد (ت ٢٧٦ هـ) من المشرق وكان شافعيا ، اتهمه الفقهاء بالبدعة ، وأثاروا العامة ضده ، وخاطبوا الأمير محمدا (٢٣٨ هـ / ٨٥٧ م - ٢٧٣هـ / ٨٨٦ م) بشأنه ليسفك دمه ، فخاف بقي ، وعقد العزم على الهرب من البلاد ، لولا وساطة الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذي هيأ له مناظرة خصومه بمجلس الأمير فغلبهم [٢].

وكان منذر بن سعيد قاضيا للجماعة لسنوات طويلة من سنة ٣٣٩ هـ إلى أن مات في سنة ٣٥٥ هـ ، ومع أنه كان من أهل الظاهر ، إلا أنه كان إذا جلس إلى القضاء يقضي بمذهب مالك [٣].

١- أحسن التقاسيم . ليدن ، بريل ، ١٩٦٧ ، ص ص٣٣٦ - ٣٣٧ .

٢- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ . جـ١ ، ص ص٩١ - ٩٣ تر ٨٣ ، الرازي في ابن حيان: المصدر نفسه ص٢، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .

٣- ابن الفرضي : المصدر نفسه جـ٢ ص١٤٤ تر ١٤٥٤ ، المقري : المصدر نفسه، جـ٢ ص٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تذهب دولة مالك بذهاب دولة بني أمية ، ورغما عما كان لابن حزم (ت ٤٥٦م) من مكانة بين أهل عصره ، إلا أن كتبه أحرقت ، وأوى المفكر الكبير إلى قريته الصغيرة في غربي الأندلس ، منزويا عن الناس إلى أن مات [١]، وظلت كتبه مطاردة سنوات طويلة بعد ذلك [٢].

إذا كانت هذه حال مذاهب أهل السنة ، فان الحال كانت أكثر تطرفا مع غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى ، خصوصا إذا ما رافق هذه المذاهب نزوع سياسي بعينه ، فلا نشاهد للخوارج وجودا واضحا بالأندلس ، ولم تكن مشاركة بربر الأندلس إخوانهم بربر المغرب في ثورتهم الكبرى (١٢٢هـ / ٧٤٠م - ١٢٥ هـ / ٧٤٣م) ثورة خوارج ، إنما كانت ثورة بربر تعصبوا لإخوان لهم بربر ، وإن كانوا خوارج ، ولاتحدثنا المصادر إلا عن حركة للخوارج في عهد الحكم الربضي (١٨٠هـ / ٧٩٦ م - ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م) بالجزيرة الخضراء Algeciras لم يلبث أن انقضت سريعا ، ولم يترتب عليها شيء [٣]، ويكتفي ابن حزم [٤]-فيما بعد - فيشير إلى عادات استغربها لدى بعض الإباضية المعاصرين بالأندلس .

١- المقري : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٦٧ .

٢- ابن خلدون : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص١٠٤٨ .

٣-ابن القوطية : المصدر نفسه ، ص ص٦٧ - ٦٨ .

٤- الفصل في الملل . تحقيق عبد الرحمن عميرة ومحمد ابراهيم نصر ، جدة ، عكاظ ١٩٨٢ جـ٥ ، ص٥١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما عن الشيعة فان وجودهم يرتبط أساسا بالصراع الذى احتدم بين الفاطميين والأمويين ، خصوصا على المغرب الأقصى ، وكان عدد منهم جواسيس أتوا من خارج الأندلس ، يمكن أن ندخل فيهم الجغرافى ابن حوقل (ت ٣٦٧ ـ) أو دعاة أتوا أيضا من خارج الأندلس ، مثل الداعيين اللذين أرسلهما عبيد الله المهدى (٢٩٧ هـ / ٩١٠ م - ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) إلى عمر بن حفصون (ت ٣٠٥ هـ) الثائر على الأمويين بكورة رية Rejio ، وقد أقاما لديه عدة سنوات ، وحضرا بعض حروبه ، ثم انصرفا بعد ذلك إلى المغرب [١].

فاذا انتقلنا إلى غير هؤلاء وأولئك من أهل الكلام ، وبخاصة المعتزلة ، فقد تسربت أفكارهم إلى الأندلس مع بعض الأندلسيين المبتعثين إلى المشرق، وأشهرهم محمد بن عبد الله ابن مسرة (ت٣١٩هـ) الذى تعرض لتنكيل الدولة ، إلى أن مات [٢]. وأصدر الناصر بشأنه

١- ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ٢ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ م ، ص٢٢ ، ويذهب الأستاذ الفاضل محمود مكى إلى أن شقنا بن عبد الواحد الثائر على عبد الرحمن الداخل بكورة شنت برية Santa Maria وتسمى بالفاطمى كان شيعيا (التشيع فى الأندلس ، مقال فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثانى ١٩٥٤ م ص ص٩٨ - ٩٩) لكننا لانقف فى مصادرنا على خبر يؤكد ذلك ، ولايوجد سوى نص اعتمد عليه مكى ورد فى البيان المغرب (جـ٢ ، ص٥٤) ذكر فيه " الداعى الفاطمى " ونرجح أنه تصحيف من الناسخ صحته (الدعى الفاطمى) .

٢- أنظر بشأنه بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة حسين مؤنس . القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٥ م ، ص ص٣٢٦ - ٣٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتابا قرىء فى أقطار البلاد [١]، ونشط عدد من علماء الأندلس فى إدانة المسرية ، ونقض ما جاءت به من أفكار [٢].

وظل الموقف من المعتزلة كما هو فى العصور التالية ، وبعد أن تفرق أمر الأندلس ، وحين عاد أحمد بن خلف الحضرمى (ت فى حدود ٦٤٣ هـ) من المشرق بتفسير الكشاف للزمخشرى [٣] ، فانه تعرض لاستهجان معاصريه ، ونشط بعضهم فى تصنيف ردود على هذا الكتاب [٤].

ومع أن الأندلس أنجبت خلال القرن السادس الهجرى عددا من الفلاسفة ذاع صيتهم فى الشرق والغرب معا ، ويأتى فى مقدمتهم ابن رشد (الحفيد ت ٥٩٥ هـ) إلا أنه يلاحظ أن الفلسفة نشأت متأخرة فى الأندلس عنها فى المشرق ، ولم تستطع أن تطل برأسها ، إلا بعد أن تفرق أمر البلاد، بل إن أهلها - مع ذلك - تعرضوا للمطاردة . يقول

١- ابن حيان : المقتبس س٥ . تحقيق شالميتا . مدريد المعهد الاسبانى العربى للثقافة ١٩٧٩ ص ص٢٤ - ٣٠ .

٢- ابن الفرضى : المصدر نفسه جـ٢ ص ص ٩٤ - ٩٥ تر ١٣٦٣ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، ج٤ ص٧ تر ٦٢٣ .

٣- ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة . تحقيق محمد بن شريفة . بيروت، دار الثقافة جـ١ ص٢٨ - ٣٠ تر ١٢ .

٤- ابن الآبار : التكملة بصحيح السيد الحسينى ، مصر ١٩٥٥م ، ص٢٠٦٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)[١] "وهو علم ممقوت بالأندلس لايستطيع صاحبه إظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه " .

ووصلت الحال بالعلوم القديمة على نحو عام أنها صارت مكروهة ، وكان بعض الحكام كثيرا ما يلجئون إلى حرق كتبها تحببا إلى العلوم ، ومن هؤلاء المنصور بن أبى عامر (٣٦٨هـ / ٩٧٨ - ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م) الذى أخرج ما كان منها فى خزانة الحكم المستنصر (٣٥٠هـ / ٩٦١م - ٣٦٦هـ / ٩٧٦م) وأحرقها فى آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة [٢].

-3-

أفضى هذا الاستقلال إلى إحساس الأندلسيين بخصوصيتهم التى تميزهم عن إخوانهم المشارقة ، وظلت هذه الخصوصية تنمو على مر السنين ، ولم تلبث أن تبدت ملامح هذه الخصوصية فى الأندلسيين صاروا يختلفون عن غيرهم من المسلمين فى عدم ميلهم إلى ارتداء العمامة [٣]، ووصل بهم الحال فى تميزهم إلى أن صاروا يرتدون فى أحزانهم البياض ، مما أثار حيرة أحد الشعراء مضى يتلمس لهذه الظاهرة أصولا ، فيقول [٤]:

١- المقرى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص١٨٦ .

٢- صاعد الأندلسى : طبقات الأمم . تحقيق حياة بوعلوان . بيروت ، دار الطليعة ١٩٨٥ ص ص١٦٣ - ١٦٤ .

٣- المقرى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص١٤٥ .

٤- المصدر نفسه ، جـ٣ ص ٤٤٠-٤٤١ .

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم فى مآتمكم بياضا فجئتم منه فى زى غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولاحزن أشد من المشيب

على أن الأهم من ذلك كله هو جوار هذا الثغر الواقع على تخوم دار الإسلام لدار الحرب ، وأفضى هذا الجوار إلى حال حرب شبه دائمة بين الأندلس وبين جيرانها فى شبه الجزيرة هذه الحال التى أضفت على تاريخ الأندلس طابعا سياسيا واضحا . وما دام الجهاد يستمد أصوله من الدين نفسه ، فقد وضعت أحاديث نبوية تنوه بفضل الأندلس [١] ، ووصلت الحال بابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) [٢] فى القرن الثامن إلى أن يفضل الجهاد على الحج ، باعتبار أن هذا الأخير فضيلة خاصة بفرد ، فى حين أن الجهاد فضيلة خاصة بجماعة .

ويحتل الرباط مكانا خاصا فى الجهاد ، لذلك شاهدنا الأندلسيين ينشئون العديد من الرباطات ، وبخاصة لدى السواحل ، وأشهرها رباط المرية Almeria الذى أضحى فيما بعد القاعدة الرئيسية للأسطول الإسلامى بالأندلس [٣].

١- الحميدى : جذوة المقتبس . القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ، ص ص٦ - ٧ وابن عذارى : المصدر نفسه جـ١ ، ص٦ -٧ .

٢- المقرى : المصدر نفسه جـ١ ص ص١٨٨ - ١٨٩ .

٣-العذرى : المصدر نفسه ص٨٦ ، الحميرى : الروض المعطار تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٨٤ م ، ص ص٥٣٧ - ٥٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقام لدى هذه الرباطات عدد من زهاد المسلمين وعبادهم ، منهم ابن لُباج الأموى الشنتجيالى (ت٤٣٦هـ) ، وكان قد ارتحل إلى المشرق ، وجاور بالحرم نحو أربعين سنة ، ثم عاد إلى قرطبة Cordoba ، ولم يلبث أن غادرها ليرابط يالثغور الغربية إلى أن اعتلت صحته ، فعاد إلى قرطبة مرة ثانية ، حيث مات بعد قليل (١).

كان لوجود هذه الرباطات أثرها فى الجبهة المقابلة بدار الحرب ، فنشأ بين الرهبان فى الأديرة مقاتلة أعانوا فيما بعد ، على اشتداد ساعد حركة الاسترداد ، وتطور الأمر فى القرن الثانى عشر الميلادى ، حيث نشأت جماعات عسكرية دينية Ordones Militares مثل Calatrava , Santiago , Alc`antara وغلب عليها الطابع السياسى فى القرن الرابع عشر .

وسعى البعض إلى أن يلتمس أصول هذه الجماعات الفرنسية التى توافدت إلى أسبانيا مثل الداوية Templarios والاسبتارية Hos-pitalarios ، لكن الاتجاه الحديث هو تأثر الجماعات الاسبانية بالرباطات االأندلسية ، لأن الكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضا إلى الراهب الذى يجمع بين الزهد والسيف معا (٢) .

١- ابن بشكوال : الصلة . القاهرة ، دار الكتاب العربى ١٩٦٧ م ، جـ١ ص ص٢٧١ - ٢٧٣ تر ٥٩٨ .

٢- Castro : op cit . PP . 188 - 184 .

ومما يؤكد ذلك وجود أماكن عديدة فى أسبانيا والبرتغال تدعى Rapita,Rabida وتعنى Arrebatar انتزع أو سلب ، كما تعنى Arrobada حرسا أماميا أو طليعة Ibid p . 190 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونعاود موضوعنا

الأندلس بوصفها موضع جهاد كانت مدعاة لفخر الأندلسيين وزهوهم إزاء اخوانهم المشارقة ، وتدافعت هذه النعرة لديهم ، خصوصا بعد أن تحقق لهم الاستقرار وازدهرت حضارتهم ووصلت إلى حال من التعالى، وصنفت في هذا الشأن رسائل منها رسالة مشهورة لابن حزم [١]، وهو عندما يفاضل بين علماء الأندلس وعلماء المشرق ، أضاف المغاربة إلى جملة المشارقة ، وجعل الجميع إزاء علماء الأندلس وابن حزم نفسه له بيت مشهور يقول [٢]:

ويا جوهر الصين سحقا　　　فقد غنيت بياقوتة الأندلس

نزعة التباهى هذه كانت تصل أحيانا إلى حد التعريض بالغير والإساءة اليه ، ويروى ابن سعيد [٣] عن أبيه أنه جرى بين أبى الوليد الشقندى وأبى يحى بن المعلم الطنجي - بمجلس الأمير أبى يحى الموحدي- نزاع فى التفضيل بين البرين ، فقال الشقندى / لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة ، ولاسارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير : " أتريد أن تقول كون أهل بحرنا عربا وأهل بركم بربر " فقال : " حاشى لله" فقال الأمير : " والله ما أردت غير هذا " فظهر فى وجهه أنه أراد ذلك ، واتفق على أن يعمل كل منهما رسالة فى تفضيل بره .

١- فى المقرى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ص١٥٦ - ١٧٩ .

٢- طوق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكى ، القاهرة ١٩٨٠ ، دار المعارف ص٩١ .

٣-المقرى : المصدر نفسه جـ٣ ، ص١٨٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيد أن الموقع ، وإن كان قد حقق للأندلس استقلاله السياسى والمذهبى معا ، فانه كانت له عيوبه فى عصور الضعف ، وإذا كان المغرب قد هرع لنجدة الأندلس مرتين فى زمن المرابطين وفى زمن الموحدين ، إلا أنه بعد إخفاق هؤلاء الأواخر فى العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢ م . أضحت الأندلس منفردة أمام عدو أقوى منها بكثير ، ولم يجد نفعا صريخ ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) فى سينيته المشهورة [١]، ولم تستطع السفن التى أرسلها صاحب أفريقية الحفصى شيئا لنجدة أهل بلنسيه Valencia ، ولم تلبث المدينة أن سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م وعادت السفن أدراجها إلى أفريقية [٢] .

على أن الأهم من ذلك هو ما جرى إبان الصراع الأخير ، حين باتت آخر قلاع الإسلام فى غرناطة على شفا المنحدر ، فبعد أن يئس زهل الأندلس من إخوانهم المغاربة ، بعثوا فى عون سلطان مصر سنة ٨٤٤ / ١٤٤٠، لكن الظاهر جقمق ٨٤٢هـ / ١٤٣٨ م - ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م اعتذر لبعد الشّقة ووعدهم بأن يعينهم بمال وعدة ، ووقف الأمر عند هذا الحد ، وليس لدينا خبر عن مال أرسل ولا عدة [٣].

١- وأولها : أنجد بخيلك خيل الله أندلسا   أن السبيل إلى منجاتها درسا

٢- المقرى : المصدر نفسه جـ٤ ، ص ص٤٥٦ - ٤٦٠ .

٣- المقريزى : السلوك ،تحقيق سعيد عاشور . القاهرة ، جـ٤ ، ق٣ ص ١٢١٩، محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام ، ع٤ ، ص١٦٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتكررت السفارة فى سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م واكتفى السلطان الأشرف قايتباى ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ - ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م بتهديد "صاحب قشتيلية " بهدم كنيسة القمامة والقبض على أعيانها ، ومنع الفرنج من الحج إليها [١].

أما عن القوة الإسلامية الرئيسية ، وهى السلطنة العثمانية ، فانها لم تفعل شيئا هى الأخرى ، وإن شارك بعض المنتسبين إليها من مجاهدى البحر فى الإغارة على القواعد الشرقية لأسبانيا بعد سنوات من سقوط غرناطة .

-4-

ترتب على جوار المسلمين الأندلسيين لنصارى أندلسيين أن نشأت علاقات اجتماعية حميمة بين الجانبين ، ويطول بنا الحديث عن هذه العلاقات ، ويمكن مراجعة تفصيلاتها فى أطروحتنا لدرجة الدكتوراه[٢] ، وإلى مقال قيم للأستاذ الفاضل أحمد مختار العبادى [٣]. ونكتفى هنا بأن ننوه بعلاقات الزواج بين المسلمين والنصارى ، وأفضت هذه العلاقات

١- ابن اياس :بدائع الزهور . تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، جـ٣ ص ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

٢- المعاهدون فى الأندلس ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٣ غير منشورة ص ص١٦٣ - ١٧٢ .

٣- الإسلام فى أرض الأندلس " مجلة عالم الفكر م ١٠ ع٢ ، ١٩٧٩ ، ص ص٥٩ - ١١٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى أن فقد المسلمون الوافدون نقاوتهم العرقية ، وإذا اتخذنا نموذج الأسرة الأموية كعينة ، فقد دعي المنذر بن عبد الرحمن الناصر بابن القرشية لانفراده بين أقربائه بكونه قرشي الأب والأم معا[١] .يقول ابن حزم :[٢] " وأما جماعة بني مروان - رحمهم الله - ولاسيما ولد الناصر منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لايختلف في ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم ، من لدن دولة الناصر إلى الآن ، فما منهم إلا أشقر نزاعا إلى أمهاتهم ، حتى صار ذلك فيهم خلقة حاشى سليمان الظافر - رحمه الله - فاني رأيته أسود اللمة واللحية " .

عند انعكاس هذه العلاقات الاجتماعية على البنى الثقافية ، فان لغة الأندلسيين العامية تأثرت باللغة اللاتينية (وقد دعوها اللطينية) ، بل أن الكثيرين منهم كانوا على دراية باللغة اللاتينية ذاتها وقد يجيدونها [٣]. وعندما كان المقدسي بمكة التقى ببعض الحجاج الأندلسيين ويعلق بأن [٤]" لغتهم عربية غير أنها منغلقة - مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومي " .

١- ابن حيان : المصدر نفسه ، م٥ ص١٠ ، ابن الأبار : الحلة السيراء . القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر ، تحقيق حسين مؤنس ، ص٢١٠ ، تر١٠٨ .

٢- المصدر نفسه ، ص٤٨ .

٣- راجع مناقشتنا لهذه القضية في كتابنا أندلسيات ، الفصل الأول ، ص ص ١٣ - ١٨ .

٤- المصدر نفسه ، ص٢٤٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن الوجود المستمر للغة اللاتينية طيلة عصور التاريخ الأندلسي، كانت له حسنة كبيرة فقد شكل تحديا مستمرا لوجود اللغة العربية ذاته ، وهيأ للأندلسيين حافزا كبيرا كي يسعوا للمحافظة على لغتهم العربية خصوصا " وقد أصابها اللحن ، وهذه ظاهرة عامة نلاحظها في الأقطار العربية التي تقع على التخوم مع العجم ، ومثلما ازدهرت علوم اللغة - وبخاصة النحو - في مدينة البصرة ، فقد ازدهرت أيضا في الأندلس ، وظهر عدد من أعلامها ، نذكر منهم ابن القوطية (ت٢٦٧هـ) والزبيدي(ت٣٧٩هـ) وابن مالك (ت٦٧٢هـ) صاحب الألفية المشهورة .

يقول ابن سعيد [١] : والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ، حتى أنهم في هذا العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه ، لايزداد مع هرم الزمان إلا جدة ، وهم كثير والبحث فيه وحفظ مذاهبه ، كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أي علم لايكون متمكنا من علم النحو بحيث لاتخفى عليه الدقائق ، فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء ، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية " .

وعندما يذكر صاحب الروض المعطار[٢] آذربيجان يأتي للحافظ أبي ظاهر السلفي :

١- المقري : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢٢١ .

٢- الحميري : ص٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ديار أذربيجـان في الشـــرق عندنـــا　　كأندلس الغرب فى النحـو والأدب

فلست ترى فى الدهر شخصا مقصرا　　من أهلهـا إلا وقد جـد فى الطلب

ترتب على هذه العلاقات الاجتماعية شيء آخر ، فقد خفت صوت العصبية للعرق ، ولم يتجاوز حد المفاخرات الشعرية التى كانت يدورها قليلة [١]، وإذا كان أحمد بن دراج - متنبى الأندلس - ينتمى فى أصله البعيد إلى البربر ، فاننا لانحس بصدى من هذه البربرية فى شعره ، فلا يتحدث عن نسبه ، بل أنه يهجو بربريا مثله وهو زيرى بن عطية المغراوى لدى ثورته على المنصور ابن أبى عامر [٢].

فى غضون عصر الخلافة ، وبعد أن قمعت الدولة الفتنة التى وقعت فى أخريات عصر الإمارة وبعد أن قمعت أيضا العصبيات العربية ، ولم يعد لها دورها المعهود بها كأجناد ، بدأ يظهر ما يمكن أن نطلق عليه الشخصية الأندلسية ، وتتضح ملامح هذه الشخصية في موقفها من بربر العدوة الذين استقدمهم المنصور بن أبى عامر ليعتز بهم ، فقد نفر منهم أهل الأندلس ، حتى الذين كانوا ينحدرون من أصول بربرية ، وكانوا ينظرون إليهم على أنهم قوم غرباء غير متحضرين ، وزاد من هذه النظرة، ما أقدم عليه البربر من اقتحام قرطبة فى سنة ٤٠٣هـ /

١- ابن الآبار / التكملة م٢ ص٤٣٩ تر ١٢٥٧ ، الحميدى : المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ تر ٦١٣ .

٢- ديوانه . تحقيق محمود علي مكى ، دمشق المكتب الإسلامى ١٩٦١ م ص٦، من النص وص٢٤ -٢٥ من المقدمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠١٣م وتخريبها ، ويعطينا ابن حزم صورة لهذا التخريب فى عبارات مشجية وردت بكتابه الطوق [١].

فى هذه المرحلة تذكر المصادر الأندلسية تعبير الأندلسيين أو البلديين إزاء البربر أو البرابرة [٢]. ورغما عن حاجة الأندلسيين فيما بعد لعون المرابطين (ثم الموحدين) إلا أنهم لم يكونوا على علاقات طيبة معهم فى أحوال عدة ، وتمادت ثوراتهم ضدهم ، وكذا كانت حال مملكة غرناطة مع معاصريها من بنى مرين .

على أن الأندلسيين فى عصورهم المتأخرة كانوا كثيرا ما ينسبون أنفسهم إلى العرب ، لكن هذه النسبة التى يؤكدها ابن الخطيب[٣] فى عبارات رومانسية ، هى فى حقيقتها صدى لإحساس أمة مغلوبة فى طريقها إلى منحدر ، وتريد أن تسترجع صورة ماض ذهب ، وليس ثمة أمل فى أوبه . ولدينا فى وثائق [٤]نشرت منذ سنوات ما يؤكد حرص الأندلسيين فى نسبتهم أن ينتسبوا إلى المكان وليس إلى العرق ، وظل إحساس الأندلسيين بالانتماء إلى مكان (أى وطن) يصاحبهم حتى بعد نكبتهم الأخيرة ونفيهم ، وقد عاد بعضهم فيما بعد إلى هذا الوطن .

١- ص١٢٦ .

٢- ابن الخطيب : المصدر نفسه ، ص١٤٩ وما بعدها .

٣-الاحاطة : تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، مكتبة الخانجى ١٩٧٣ جصص١٣٤ - ١٣٦ .

٤- لويس سيكودى لوثينا : وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى . مدريد ، المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، ١٩٦١ ص ص ٨-٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في رائعته دون كيخوته Don Quijote de la Mancha يقول ثرينتس Cervantes على لسان الموريسكو (الأندلسي المتنصر) المنفي :

" أينما كنا فاننا نبكي من أجل اسبانيا ، لأننا في النهاية ولدنا هناك ، وهي وطننا الطبيعي ، لذا أشعر بما يطلقون عليه عادة المحبة العارمة للوطن " [١].

الانتماء إلى وطن بعينه دون غيره من أوطان ، كان يجعل إحساس المسلم الأندلسي تجاه مواطنيه النصارى الأندلسيين ، لايختلف كثيرا عن إحساسه تجاه مواطنيه المسلمين الأندلسيين ، وبطبيعة الحال فان دينه الحنيف أعان على تكريس هذا الإحساس ، وهو ما نعبر عنه بالتسامح ، ويؤكد العديد من المؤرخين الفرنج المحدثين هذه الحقيقة [٢].

دامت سياسة التسامح هذه قرونا عدة ، إلى أن قطعها ما جرى من استجابة النصارى الأندلسيين لغزوة ابن ذمير وهو أذفونش المحارب Alfonso El Batallor ملك أرغونة Aragon (١١٠٤ - ١١٣٤م) في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ , وترتب على ذلك أن تم تغريبهم أو تغريب عدد كبير منهم ، بعد فتوى أصدرها القاضي أبو الوليد بن رشد (الجد ت ٥٢٠هـ)[٣] ، على أن بعضهم عاد إلى الأندلس بعد سنوات [٤].

١- 1- Castro : op cit P . 58 .

٢- 2- Ibid : P . 47 .

٣- ابن الخطيب : المصدر نفسه جـ١ ص ص١١٣ - ١٤٤ ، ابن عذاري : المصدر نفسه جـ٤ ص٧٢ .

٤- 4- O'Callaghan : op cit P 286 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك فإن الإحساس بالأندلسية المتزج بالتسامح كان يدفع المسلمين الأندلسيين داخل دار الاسلام ، لأن ينظروا إلى النصارى الأسبان خارج دار الاسلام ، على أنهم لايختلفون عنهم إلا فى ولائهم السياسى . ففى غير أوقات الحرب كانت تجرى علاقات عادية بين الفريقين ، وبعضها علاقات تجارية [١] ، ولم يكن الأندلسى القادم من دار الاسلام يجد غضاضة من المقام بدار الحرب ، وكذا كانت حال قرينه النصرانى القادم من هذه الدار إلى دار الإسلام [٢].

فى عصر الطوائف صار بعض المسلمين يعملون كأجناد فى الممالك النصرانية ، وكذا كانت حال بعض النصارى ، وقد خدم رودريجو دياث دى بيبارى Rodrigo Diaz de Vivar المعروف بالسيد القنبيطور El cid Campeador فى جيوش المسلمين ، كما خدم فى جيوش النصارى، والملحمة التى تحمل اسمه تحفل بأسماء مسلمين خدموا معه ، بعد أن صار له جيشه الخاص به [٣].

١- Imamuddin , S.M .Some aspects of socio economic and cultural history of Moslem Spain . Brill 1965 P . 122 .

٢- ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة سالم حلمى، القاهرة، نهضة مصر ١٩٥٦ ص٢٨٤ .

٣- راجع الدراسة القيمة للمحقق الفاضل الأستاذ الطاهر مكى فى مقدمة ترجمته للملحمة القاهرة دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص٧٩ وما بعدها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد امتدت روح التسامح هذه من الأندلس إلى أسبانيا النصرانية ، وهو ما نلاحظه في معاملة النصارى للمسلمين الذى خضعوا لهم بعد سقوط العديد من القواعد الإسلامية . وأفضى سقوط هذه القواعد إلى دخول طوائف كبيرة من المسلمين في طاعة الملوك النصارى ، وقد دعى هؤلاء المسلمون بالمدجنين Los Mude`Jares ، وعوملوا من قبل سادتهم الجدد معاملة في جملتها طيبة . صحيح أنه كان يوجد دائما تيار ينحو نحو التضييق عليهم ، نشاهد أمثلة عديدة عليه ، لكن هذا التيار لم يكن له تأثير كبير حتى نهاية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى [١].

كانت الفكرة السائدة - كما يذهب كاسترو - [٢] هى أن المسلمين عدو سياسى ، يجب حربهم ليس بسبب عقيدتهم ، ولكن لأنهم استولوا على أراض تخص النصارى، ويقرر أن اذفونش العاشر الحكيم Alfonso (١٢٥٢-١٢٨٤) كان يرى أن الكافر يهوديا كان أو مسلما له كتاب مثلما للنصرانى كتاب ومن ثم فهو أهل للاحترام .

1- Castro : op . cit P.. 206 ff .

وفى الأبيات ٦١٦-٦٢٢ من ملحمة السيد توضح أنه لايجب أن يقتل الأسرى المسلمون ولا أن يباعوا إنما تمارس عليهم السيادة فحسب ، كما يستفاد من خدماتهم، راجع ملحمة السيد ص٢٢٣ .

2- op . cit. pp . 209 - 211 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدينا أمثلة عديدة على روح التسامح هذه ، فعندما سقطت سرقسطة Zaragoza فى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨م . فان آخر ملوكها من بنى هود ، أعطيت له مدينة روطة Rueda فصار فصلا إقطاعيا تابعا للملك ، إلى أن مات فى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م ، فخلفه فيها ولده سيف الدولة ، إلى أن تخلى عنها للسليطين (أى الإمبراطور) أذفونش بن رمند Alfonso VII (١١٢٦م - ١١٥٧م) فى سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩ م فعوضه عنها بنصف مدينة طليطلة Toledo [١].

ولدى سقوط مرسية Mursiaiفى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م جعل النصارى عم حاكمها السابق المتوكل بن هود حاكما عليها [٢]، على أن يكون فصلا من أفصال الملك ، وأن يؤدى له نصف أموالها ، ويعلق ايسيدرو دى لاس كاخيجاس Isidro de Cajijas على ذلك بأن مرسيه صارت فى حقيقتها دولة مدجنية تحت السيادة النصرانية [٣].

فى ظل الدجن بمرسيه عاش محمد بن أحمد أبى بكر القرموطى ، وكان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة ، وابتنى له الملك مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود[٤]. وفى ظل الدجن أيضا عاش

١- ابن الأبار : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٤٩ - ٢٥٠ .

٢- ابن سعيد، المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ م جـ٢ ، ص٢٥٢ .

3- O`Callaghan : op. cit. p. 53 .

٤- المقرى : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص١٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القاضى محمد بن محمد بن هشام (ت ٧٠٤هـ) ثم هاجر إلى الأندلس ، استقر فى وادى آش Guadix [١].

وقدأسدى المدجنون لسادتهم هؤلاء خدمات جليلة ، يكفى أن نذكر منها القصر Alc`azar بأشبيلية Sevilla وبوابة الشمس Puerta de sol بطليطلة [٢].

لكن إذا كانت تلك هى حال السلمين فى الدجن .. لماذا اذن نشأ الاضطهاد ؟ يذهب ميننديث بيدال R.Mene`ndez Pidal [٣] إلى أن الاتجاه إلى الملكية المطلقة والشخصية الوطنية للدولة ، وهما من آثار الرينصانص (النهضة) كانا وراء انتهاء هذه الروح التسامحية العريضة ، ويؤيده كاسترو [٤]ويضيف أن مفهوم التسامح فقد قوته عندما كف المسلمون عن إثارة الرعب والإعجاب معا فى نهاية القرن الرابع عشر ، ولم يعد ممكنا للنصارى والمسلمين واليهود أن يعيشوا معا فى البيت نفسه ، بسبب احساس النصرانى الدائم بأنه الأقوى بين أقرانه .

على أنه أيا كانت وجهات النظر فى سياسة الاضطهاد وشأنها ، فاننا من جانبنا ننوه بالروح الصليبية التى وفدت من خارج اسبانيا ،

١- النباهى : المرقبة العليا . تحقيق ليفى بروفنسال . بيروت دار الآفاق الجديدة ١٩٨٣ ص١٣٧ .

٢- 2- Castro : op cit p . 53 .

3- The Spaniards in their history . trans by Starkie london 1950 , P . 216 .

4- op . cit p . 211.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تبدت طلائعها فى فاجعة بربشتر Barbastro سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤ م التى يصفها المؤرخ الكبير المعاصر أبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦م) [١] باسهاب ولوعة ، وقد قام بها نصارى أردمانيون(نورمان) أتوا من خارج شبه الجزيرة .

كانت هذه الفاجعة مقدمة لفواجع أخرى توالت بعدها [٢]، وكان للصليبيين الوافدين الدور البارز فيها ، وكان هذا الدور يتصاعد مع تصاعد المقاومة الإسلامية الباسلة بالمشرق ، وما أحرزته من انتصارات ، أفضت فى النهاية إلى رحيل الصليبيين عن الشام .

ويمكن أن نلاحظ الفارق بين الأسبان النصارى والصليبيين النصارى مما حدث قبيل معركة العقاب وهى آخر المعارك الكبيرة بالأندلس ، فقد دخل أذفونش الثامن (١١٥٨-١٢١٤) قلعة رباح Calatrava " صلحا بعد أن أمن المسلمين " فرجع عن الأذفونش لعنه الله بهذا السبب من الروم (أى الصليبيون) جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة . وقالوا : إنما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه[٣]".

١- ابن بسام : الذخيرة وتحقيق احسان عباس . بيروت ، دور الثقافة ١٩٧٩ م١ ص ص١٧٩- ١٩٠ .

٢- مثل استيلاء الصليبيين من ألمان وفريزيين على قصر أبى دانس Alc`acer do sal فى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

٣- عبد الواحد المراكشى : المعجب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٩ م ، ص٣٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ذلك وخلال العقود القليلة السابقة لسقوط غرناطة فى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م صارت روح التعصب هى السائدة عند النصارى الأسبان وغابت روح التسامح .

-5-

إذا انتقلنا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وخصائصها فى ذاتها ، أى أسبانيا موضعا ، فاننا - بداءة - نتعامل مع ما ورد فى كتب الجغرافية العربية بحذر شديد ، فالجغرافيون العرب فى وصفهم للأندلس ، وجعلها فى معظمها داخلة فى الأقليم الرابع ، وهو خير الأقاليم عندهم ، إنما يضعون فى أذهانهم الأراضى التى استقر فيها المسلمون الأوائل على نحو واضح ، وعرفوها أكثر من غيرها ، فى السهل الأندلسى وجنوبى البرتغال (مقاطعة الغرب Algarve) والشرق Levante وهم فى جميع الأحوال يبالغون فى وصفهم .

ونحن نلاحظ تنوع الخصائص الجغرافية لأسبانيا من تباين فى سطح الأرض وتقطعها الحاد ، وتعدد الأقاليم المناخية ، والغطاء النباتى وأنماط الحياة الزراعية ، وشكلت الميسيتا معظم الدخل ، وتخترقها سلاسل جبلية عالية ، وتقترب فى بعض الأحيان من سواحل البحر ، فلا تترك سوى أرض صغيرة المساحة منخفضة [1].

1- Cambridge : p 32 , Branigan & Jarrett : the mediterranean lands . Macdonald 1975 pp 202 - 206 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتسود البلاد الثلاثة أنماط مناخية : محيطى وقاري ومتوسطى ، وفى الشمال الغربى مطر كثيف موزع على مدار العام ومراع غنية ، وفى الوسط - الميسيتا - استبس قاري شبه جاف ، تغطيه أعشاب فقيرة ، وفى الجنوب والشرق مناخ معتدل صيفا وإن كان أدنى إلى الجفاف فى الشرق ، بوجه عام تعيش معظم أسبانيا فى ظل المطر [١].

وأدى هذا بطبيعة الحال إلى تعدد أشكال الحياة الزراعية ، فيعيش بعض هذه الأقاليم على الأمطار التى تتفاوت من مكان إلى آخر ، ويعيش البعض الآخر على مياه الأنهار التى تحمل أحيانا وتجف أحيانا ، وتسبب أضرار فى الحالين .

تركت الطبيعة الجغرافية أثرها على الاستيطان الإسلامى الأول ، وهو بدوره ترك أثره على الوجود الاسلامى ذاته .

كان الأجناد الذين صحبوا طارقا وموسى يشكلون طلائع المستوطنين المسلمين بالأندلس ، وبطبيعة الحال فقد تتابعت هجرات العرب والبربر فى الحقب التالية لحقبة الفتح ، سواء كانت هذه الهجرات جماعية أم فردية .

وليس عملنا هنا أن نتحدث عن الاستقرار الإسلامى تفصيلا ، إنما نتحدث عنه اجمالا ، ونستطيع أن نقرر أن العرب انتشروا على نحو خاص لدى الأراضى الخصبة المنبسطة بأحواض الأنهار الكبيرة فى الجنوب

١- وانظر أيضا جمال حمدان : بين أوربا وآسيا . القاهرة ، عالم الكتب ١٩٧٣ ص ص ٩٢ - ٩٣ وليفى بروفنسال ، الحضارة العربية فى أسبانيا . ترجمة الطاهر مكى . القاهرة ، دار المعارف ص١٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشرق ، فى حين اختار كثير من البربر السكنى فى المناطق الجبلية وبخاصة الميسيتا الوسطى (١).

لم يكن هذا الاستقرار نهائيا إذ خضع لتطورات التاريخ الأندلسى ، وأحداثه المتعاقبة والمتناقضة ، خصوصا بعد أن زادت أعداد المسلمين ، ودخل فى جملتهم كثير من أهل البلاد الأصليين ، وصار هؤلاء هم الكثرة الغالبة بين سكان الأندلس ، لكن الاستقرار الأولى - وقد خضع لعوامل جغرافية - كان منذ البداية غير متوازن فقد تفاوت بين مكان وآخر ، وتفاوتت أيضا الكثافة العددية ، وفى الوقت نفسه جعل المسلمون نواة هذا الاستقرار فى قرطبة ، وهى بعيدة إلى الجنوب ، وقد أتى اختيارهم لها لأنها تتوسط إقليما خصبا ، وتفصله عن النواة الثالية - بحكم الموقع - فى طليطلة جبال الشارات Sierra Morena وفيا فى الميسيتا شبه القاحلة ترتب على ذلك أن كانت أعداد المسلمين قليلة فى جليقيه Galicia (٢). وهى أوفر أقاليم أسبانيا ماء ، ومن أخصبها تربة (٣)،

1- Le`vi - Provencal : Histoire de l`Espagne Musulmane . Leiden Brill 1950, vol I . pp 83 - 87 .

ويذهب دوزى إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين وتركوا للبربر ما عدا ذلك مما كان سببا فى ثورتهم . أنظر :

Recherches Sur l`histoire et la litterature de l` Espagne, Brill 1881 vol . 1 . pp . 218 - 219 .

٢- أخبار مجموعة : ص٣٩ - ٤٠ .

٣- راجع بشأن جليقيه وأنهارها.الإدريسى:المصدر نفسه،جـ٧ ،ص ص٧٢٧-٧٢٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان يمنع المسلمين من أن يتركزوا بها بعدها أولا وغيومها وبرودتها ثانيا، كما أن الأراضى التى تلى جليقيه شرقا وهى أشتوريش Astoria تحيط بها الجبال كنتبريه Contabria ، وهي جبال شديدة الوعورة، وكانت بها بقايا قوطية ، تركها العرب وشأنها .

لذلك تهيأت الفرصة لنصارى الشمال كى توجد لهم نواة صغيرة فى جبال كنتبريه وتهيأت لهذه النواة فترة حضانة ، بسبب ما جرى من حروب بين العصبيات العربية والبربرية فى أواخر عصر الولاة ، وبسبب ما رافق هذه الحروب وما جاورها - وهم من البربر - إلى مفارقتها ، بل إن الكثيرين منهم اجتاوزا البحر إلى المغرب [١].

لم يتردد هؤلاء النصارى من الإفادة بما استجد من متغيرات ، وتوسعوا بحدود مملكتهم الناشئة ، لتسير هذه الحدود مع جبال كنتبريه فى امتدادها غربا ، ثم التوائها جنوبا ، لتتصل إلى مقربة من نهر المنيو Mino .

فى عصر الإمارة الأموية ، وبخاصة الشطر الأخير منه ، جرى توسع آخر ، لعبت فيه الجغرافيا دورا رئيسيا ، فلم تكن توجد حدود واضحة للأندلس الإسلامية ، مع مملكة أشتوريش - جليقيه (ليون leon فيما بعد) إنما الذى كان يوجد مساحات واسعة من الأراضي شبه الجرداء ، وبخاصة فيما كان يعرف عند العرب بألبة Alava والقلاع ، وعرف عند المسلمين والأسبان - معا - وإن كان فى فترة متأخرة نسبيا - بقشتالة .

١- أخبار مجموعة ص٦٢ ، ابن عذارى : المصدر نفسه جـ٢ ص٣٧- ٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاشت فى هذه المنطقة جماعات هامشية من المسلمين والنصارى، وكان هؤلاء موزعى الولاء قلب، دعتهم المصادر النصرانية Enaciados[١]، ويمكن أن ندخل فى هؤلاء بنى قسى - من أمراء الثغر - وهم فى الأصل نصارى أسبان أسلموا ، لكن ولاءهم كان يتراوح بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، بل بين الإسلام والنصرانية [٢].

أفاد نصارى الشمال من الحال التى كانت عليها تخومهم مع المسلمين، وشجعوا رعاياهم على الهجرة إليها ، ثم امتد تشجيعهم إلى المستعربين Los Moza`rabes (وهم النصارى رعايا الدولة الإسلامية) ومنحوهم امتيازات ، صدرت بشأنها براءات استقرار Cartae Populationis ، تملك هؤلاء بموجبها أراضيهم ، وشرعوا ينشئون عددا من القلاع والأديرة ، وكان من شأن ذلك الامتداد بحدود المملكة النصرانية الناشئة على حساب المسلمين ، ومما يجدر ذكره أن سياسة الاستيطان فى مناطق التخوم ، صارت سياسة عامة لدى الممالك النصرانية الأخرى فيما بعد[٣].

١- ما زالت توجد فى استريمادورا Extremadura قرية تدعى Puebla de Naciados أنظر : Castro : op. cit. p . 53 .

٢- تزاوج بنوقسى مع ملوك نبرة Navarra وليون ، كما تنصر بعضهم ، أنظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ، ص ص٥٠٢ ، ٥٠٣ ، العذرى : المصدر نفسه ص٢٩ .

٣- 2- Simonet . J : Historia de los Mozarabes de Espana . Madrid 1897 . pp. 502 . 824 - 825 , O`Callaghan :op .cit. pp . 181-182 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يسع المسلمون من ناحيتهم لأن يتعاملوا مع مناطق التخوم على نحو ما تعامل النصارى وإذا كان المظفر العامرى (٣٩٢هـ / ١٠٠٢م - ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م) إبان غزاته لبرشلونة فى سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م قد شرع فى إصلاح بعض حصونها ، وأغرى المسلمين بسكناها ، مقابل أن يثبتهم فى الديوان ، ويعطى الواحد منهم المنزل والمحرث [١] إلا أن ما فعله المظفر لم يكن قاعدة ، إذ كان المسلمون فى غزواتهم يكتفون بتخريب الحصون والمواقع ، ولم يتحقق استقرار حضرى دائم بها ، مما كان يجعل مقاومة الأجناد المسلمين إزاء هجمات أعدائهم محدودة .

-6-

تركت الطبيعة الجغرافية أثرها أيضا فى أن سكان شبه الجزيرة عاشوا فى مجتمعات صغيرة منعزلة بعضها عن بعض ، تختلف فيها بينها فى أنماط الحياة ودرجات الحضارة وطرائق التفكير ، مما أدى إلى بروز النزعة المحلية أو الإقليمية Regionalisme [٢] وصار الولاء للمجتمع الصغير يفوق فى أحوال كثيرة الولاء للمجتمع الكبير ، وهو الدولة الأندلسية (أو الاسبانية) [٣].

١- ابن عذارى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٧٠ .

٢-فى كتابه الأسبان فى تاريخهم يفرد منيندث بيدال فصلا كاملا (الرابع ١٧٧ - ٢٠٣) للحديث عن هذه الإقليمية .

٣- بحيث يجوز أن نتحدث عن شعوب أسبانية متعددة ، وليس عن شعب أسبانى واحد ، ومن الأمور التى لها دلالتها أن لفظة Espana لاترد سوى ثلاث =

أعان على تكريس المحلية ما كان يواجه سكان المجتمع الصغير من مشكلات حياتية وبخاصة ما يتصل منها بالماء ، فالأندلس (وأسبانيا على نحو عام) كثيرة الأنهار ، لكنها قليلة المياه ، ويصير الجفاف طابعا عاما في عمق الميسيتا ، وبخاصة الأراضى التى تقع إلى الجنوب من طليطلة ، حتى جبال المعدن فى إقليمى La Mancha [٢] ، -Ex tremadura [٣].

وترتبط المياه على نحو عام بالأمطار التى تتفاوت بين عام وآخر ، وكان الفارق بينهما كبيرا فى بعض الأحيان ، وعندما يصف الادريسى[٤] قنطرة قرطبة يقول أن "ارتفاعها فى أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعا ، وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى نحو حلوقها " .

هذا التفاوت فى معدلات المياه كان يدفع أفراد المحلة الواحدة لأن يتعاونوا على نحو صارم ، لأن قلة المياه تؤدى إلى الجفاف ، ومن ثم إلى

مرات فى ملحمة السيد وهى الملحمة الأسبانية الكبرى ، وجدير بالذكر أن الحولية المستعربية لسنة ٧٥٤ لايرد فيها ذكر عن بلاى Pelayo مؤسس الدولة النصرانية ولا عن أذفونش الأول خليفته ، مع أن المستعرب صاحب الحولية عاصر كلا منهما . أنظر: Pidal : op cit p . 183

٢- وإلى هذا الإقليم ينتمى دون كيخوته Don Quijote بطل رائعة ثربنتس Cervantes وفى فيافيه دارت أحداث فروسيته الموهومة .

٣- وتعنى حرفيا بلاد الجفاف الشديد .

٤- المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٥٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجاعة ، وكثرتها تؤدى إلى السيول وتعرية التربة ، ومن ثم (أيضا) إلى المجاعة . لذلك كانوا يسعون دائما إلى الإفادة المثلى من هذه المياه ، وبخاصة فى شرقى الأندلس ، حيث استخدم المسلمون النواعر (واحدها ناعورة ، وصارت فى الأسبانية Noria) لدفع المياه إلى الأراضى الزراعية، وهى ثلاثة أنواع : سانية دَوْلاب وخطارة [١]، وكانت بعض هذه النواعر كبيرة يصل ارتفاعها إلى تسعين ذراعا ، مثل الناعورة التى يصفها الإدريسى[٢] بطليطلة ، وقد شاهد ابن الأبار [٣] واحدة منها فى بلنسيه ، وصفها بقوله :

تقتادنا أقدامنا وجيادنا ... لجنابه وهو النضير المعجبُ
كلفا بدَوْلاب يدور كأنه ... فَلَك ولكن ما ارتقاه كوكب
نصبته فوق النهر أيد قدرت ... ترويحه الأرواح ساعة ينصب
فكأنه وهو الطليق مقيد ... وكأنه وهو الحبيس مسيب
للماء فيه تصعد وتحدر ... كالمزن يستسقى البحار ويسكب

١-أنظر . وصف ابن العوام الاشبيلى لها فى كتابه : الفلاحة نشر Bangueri مدريد ١٨٠٢ جـ١ ، ص٥ .

٢-المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ص٥٥١ - ٥٥٢ .

٣- ابن سعيد : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣١٢ تر ٥٥٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك حفر للمسلمون القنوات لتنظيم توزيع المياه وتصريفها ، حتى لاتتحول الأراضى إلى مستنقعات ، وقد دعوها سواق (واحدها ساقية وصارت فى الأسبانية Acequia) ويصف العذرى [١] (ت ٤٧٨هـ) إحداها تخرج من نهر تدمير Tudmir ، وتمر بقرى مرسية وأريوله Orihuela وطولها ثمانية وعشرون ميلا .

وقد حظيت السواقى بعناية حكام الأقاليم ، ينسب إلى المعتصم بن صمادح التجيبى (٤٤٤هـ / ١٠٥٢م - ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧م) صاحب المرية أنه حفر فى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٠ م ساقية وصلت إلى جامع المرية ، والرياض المجاورة [٢]، وعندما سقطت بلنسيه فى يدى جاقمة Jaimi I. (١٢١٣ - ١٢٧٦ م) فى سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م كان بها ثمان سواق اختص الملك بواحدة منها ، وعندما أباحها خليفته للمزارعين ، فانه تقاضى منهم مبلغا كبيرا " [٣].

استجاب الأندلسيون لتحديات البيئة مما أفضى إلى نهضة زراعية أثارت إعجاب ابن حوقل [٤] عندما زار الأندلس فى سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م ، وقد انتقلت هذه النهضة مع المهاجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب بحيث صار " لايستعمل بلدى ما وجد أندلسى [٥] " .

١- المصدر نفسه ، ص١ .

٢- المصدر نفسه ص١ .

3- Imamuddin . op cit p . 77

٤- صورة الأرض .بيروت، مكتبة الحياة د.ت (عن طبعة ليدن١٩٣٨)ص١٠٤ .

٥- المقرى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص١٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتضح لدينا أن أفراد المحلة الواحدة كان عليهم أن يتعاونوا ، من أجل أن يحققوا الحياة الاقتصادية المشتركة ، ولم يكن اختلاف الدين بين هؤلاء الأفراد يشكل عقبة إزاء هذا التعاون ، ومع تكرار التعاون يتنامى الاحساس بالانتماء إلى مجتمع المحلة على نحو أساسى .

إذا كان هذا التعاون - ومن ثم الانتماء - ضروريا فى الأحوال العادية، فانه يصير أكثر ضرورية لدى اضطراب عناصر الطبيعة فالأمطار- وهى المصدر الوحيد لمياه الأنهار - لم تكن منتظمة دائما وإنما كانت تتراوح بين سنة وأخرى ، وإذا اتخذنا القرن الثالث الهجرى كعينة ، فانه فى سنة ٢١٢ هـ تسببت السيول فى تخريب أكثر الأسوار بالثغر ، وخربت قنطرة سرقسطة (١)، وفى سنة ٢٣٥ أذهب السيل بست عشرة قرية عند اشبيلية ، وهلك كل ما بها من ناس وبهائم وأمتعة ، كما حمل نهر تاجه Tagus ، وأذهبت بثمانى عشرة قرية ، وصار عرضه ، فيما يروى - ثلاثين ميلا (٢)، أما سيل سنة ٢٢٢ فكان يؤرخ (٣) به وتسبب السيل فى سنة ٢٨٨ وفى سنة ٢٩٠ فى الأضرار بقنطرة قرطبة (٤)، وعد السيل بنهر قرطبة فى سنة ٢٩٦ من أمهات السيول الطامية (٥).

١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ،بيروت، دار صادر ١٩٨٢ ، جـ٦ ص٤٠٨ .

٢- ابن حيان : المصدر نفسه س٢ ص٥؛ ابن عذارى: المصدر نفسه، جـ٢ ،ص٨٩ .

٣- ابن الفرضى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٥ تر ١١٠٢ .

٤- ابن حيان : المصدر نفسه ، س٣ تحقيق اسماعيل العربى ، المغرب دار الآفاق الجديدة ، ١٩٩٠ ، ص١٦١ .

٥- ابن حيان : المصدر نفسه ، س٣ ص١٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في المقابل كان الغيث يحتبس أحيانا ، وتمحل الأرض وتعم المجاعة ، ففي سنة ٢٠٧هـ ذهب خلق كثير في المجاعة وارتفعت الأسعار ، وبلغ سعر المد من القمح في بعض البلاد ثلاثين دينارا [١] وفي سنة ٢٣٢هـ عم القحط البلاد كلها وهلكت المواشي واحترقت الكروم وكثر الجراد [٢]، ثم توالت المجاعة معظم سنوات الخمسينات [٣]، إلى أن بلغت ذروتها في سنة ٢٦٠ هـ ، ومات - كما يروى - أكثر الناس ، وصارت هذه المجاعة مثلا [٤]، وفي سنة ٢٨٥ هـ عادت المجاعة [٥]، ثم اشتدت في سنة ٢٩٧ ، وعبر كثير من الناس البحر إلى العدوة ، وعرفت هذه السنة بسنة جوع جيان Jaen [٦].

وكان الاستسقاء من الأمور المهمة ، وخصص له في عصر الإمارة مصليان بقرطبة [٧]، وعندما قحط الناس في أواخر عهد الناصر ، أمر قاضيه منذر بن سعيد بالبروز للاستسقاء ، فتأهب لذلك وصام ثلاثة

١- ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ٦ ، ص ٣٨٤ .

٢- ابن حيان : المصدر نفسه ، س٢ ، ص ص١ ، ٩٣ ؛ ابن عذارى : المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٨٩ .

٣- ابن حيان : المصدر نفسه س٢ ، ص ص٣٢١ ، ٣٢٤ ، ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ٧ ، ص١٩٠ .

٤- ابن القوطية :المصدر نفسه ص١٠٠ ، ابن حيان : المصدر نفسه ، س٢ ص٣٤٣

٥- ابن حيان : المصدر نفسه س٣ ، ص١٥٠ .

٦- المصدر نفسه ، ص١٦٨ .

٧- ابن حيان : المصدر نفسه س٢ ص ص٤٦ ، ٤٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيام، واجتمع الناس في مصلى الربض ، بارزين إلى الله تعالى ، وشاركهم الخليفة الدعاء والضراعة ، وأخذ يبكي وقد ارتدى ملابس خشنة، ثم خرج القاضي نحوهم متضرعا خاشعا وبكى وخطب فضج الناس بالدعاء ، ولم يكد يتم خطبته حتى بللهم الغيث [١].

إلى جانب هذا الاضطراب الناشيء عن تراوح مياه الأمطار ، فان بلاد الأندلس كانت تجتاحها أحيانا عواصف هوجاء وبروق ورعود ، صارت ظاهرة عامة خلال ثلاثة سنوات من حكم المستنصر ٣٦٠ - ٣٦٣ هـ [٢]، إلى جانب الزلازل ، ولدينا خبر عن اثنين أحدهما في سنة ٣٦٢ هـ [٣] والآخر في سنة ٣٦٤ هـ ، وقد عم هذا الزلزال الأخير معظم أنحاء الأندلس[٤].

هكذا نلاحظ أن ظروف المناخ كانت تعين على تكريس المحلية،عند أهل الأندلس (وأسبانيا)، وكان يعين على تكريسها كذلك صعوبة المواصلات بين أقطار الأندلس بعضها وبعض وكذا بينها وبين الحاضرة قرطبة .

١- ابن خاقان : مطمح الأنفس ، تحقيق محمد على شوابكة ، بيروت ، دار عمار ١٩٨٣ م ص ص٢٤٦ - ٢٥١ .

٢- ابن حيان : المصدر نفسه س الحكم المستنصر ص ص٦٦، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ١٥٤ .

٣- المصدر نفسه : ص١٠٧ .

٤-ابن حيان : المصدر نفسه ، ص٢٠٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما كانت أنهار الأندلس غير صالحة للملاحة في معظم شهور السنة ، كان يستعاض عنها بالطرق البرية ، والحق أن السبق يعود إلى الرومان الذين برعوا في إنشاء هذه الطرق التي صارت تدعى Viae Romanae ، وتابعهم المسلمون في هذا المجال ، وكانت للمدن الرئيسية أبواب ، تبدأ عندها طرق تؤدي إلى مدن أخرى مجاورة [١].

كان يدني من خطر هذه الطرق سلاسل الجبال الوعرة التي تخترق الميسيتا الأسبانية صفوفا متتابعة ، كما تنهض لدى السواحل ، والأسبان يطلقون عليها تعبير Sierra ويعني - حرفيا - منشارا ، وهو معنى له دلالته ، وبعض هذه الجبال كان غاية في الارتفاع إلى حد أن أحدها - وهو جبل الثلج - الذي يحتضن مدينة غرناطة كان يرى من عدوة البحر [٢].

كذلك فان الأنهار المستعرضة غالبا كانت تدني بدورها من خطر هذه الطرق ، وحاول المسلمون حل هذه المشكلة - بابتناء قناطر على ما يصادفهم من أنهار . وتنسب إلى المنصور بن أبي عامر واحدة منها ، استغرق انشاؤها على نهر قرطبة سنتين ٣٨٧ - ٣٨٩ ، وكلفت الدولة مبالغ باهظة ، كما ابتنى قنطرة أخرى على نهر استجة Ecija ، وهو نهر شنيل Jenil [٣] .

١- حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦٣م ، ص٢٨٤ وما بعدها .

٢- البكري : المصدر نفسه ، ص٨٥ .

٣- ابن عذاري : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيد أن هذه القناطر كانت تخضع لتقلبات النهر ، كما كانت تتأثر بالسيول ، مما كان يقتضى عناية خاصة ، وهو أمر لايتوافر فى جميع الأوقات .

واستدعت المحلية بطبيعة الحال وجود نواة حضرية أو أكثر من نواة تساهم أو تشارك فى تنظيم مجتمع المحلة الواحدة ، والحق أن ظاهرة المدينة سابقة على قدوم العرب ، وكانت البلدية فى العصر الرومانى تشمل النواة وهى المدينة ، وحواليها إقليم ريفى مترام Territorium ، يضم قرى كثيرة وضياعا ، وتحكم البلدية مشيخة Curia من مائة عضو يختار منهم كبار الموظفين [(١)].

تدهورت ظاهرة المدينة فى عصر القوط ، لكن المسلمين أحيوها ، وجعلوها أساس التنظيم الإدارى فى البلاد ، وكانت الكورة تتبعها ، بخلاف ما كانت عليه الحال فى المشرق [(٢)]، وكانت المدن من العدد والسعة بحيث لفتت انتباه الجغرافيين العرب ، فيذكرون أن المسافر لايتزود حيث سلك لكثرة ما يتلقاه من مدن فى سفره ، فربما لقى فى اليوم الواحد أربع مدائن عدا القرى والمعاقل والحصون [(٣)].

1- O'Callaghan . op cit . p . 30 .

٢- حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص٥٣٧ .

٣- المقرى : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترتبط المدن بالحصانة ، فكانت لك Lugo في العصر الروماني تضم ثمانين إلى تسعين برجا ، وكذا كانت أسترقه Astorga وليون وسرقسطة[١]، وفي العصر الإسلامي كانت طليطلة تقع على منحدرات عالية ، تمتد حتى ضفاف التاجة ، ويدل ما تبقى من أسوارها على منعتها الفائقة [٢]، ومع أن أذفونش السادس (١٠٦٥ - ١١٠٩م) عاش فيها فترة إبان عصر الطوائف " وعرف من أين يؤتى البلد ، وكيف الطريق إلى ملكه " إلا أنه حين أراد أخذها حاصرها سبع سنوات [٣].

ومن الأمور التي لها دلالتها أن اسم قشتالة نفسه مشتق من قلعة وكذا حال قطالونية . وكان من سياسة الدولة في حروبها ، داخل حدود الأندلس وخارجها ، أنها كثيرا ما كانت تهدم أسوار سرقسطة في سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م [٤]، فان المسلمين لم ينجحوا في هدم أسوار ليون في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م [٥].

١- 1- Livermore , H . W : The Origins of Spain and Portugal London Allen 1971 p . 43 .

٢- محمد عبدالله عنان :الآثار الأندلسية الباقية.القاهرة ، الخانجي، ١٩٦١ص٨٠ .

٣- ابن الأثير : المصدر نفسه ، جـ١٠ ، ص١٤٢ .

٤-العذري : المصدر نفسه ، ص٢٩ .

٥- ابن الأثير : المصدر نفسه جـ٧ ، ص٢٤ ، المقري : المصدر نفسه جـ١ ، ص٢٤٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان لهذه المحلية حسناتها ، فقد أعانت على خلق المنافسة بين المجتمعات الأندلسية بعضها وبعض ، مما أفضى عن نتائج طيبة فى الأدب والعمارة ، وغير ذلك من فنون الحضارة ، لكنها فى الوقت نفسه أعانت على أن جعلت أفراد المجتمع الصغير ، يكتسبون عادات وقيما وسلوكا بل ولغة ، يختلف بدرجة أو بأخرى عن مجتمع آخر ، ربما يكون مجاورا لهم ، وينوه ابن حزم بأن " من سمع لغة أهل فحص البلوط (Pedroche) وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول أنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة " [1]. وكان القاضى سعيد بن سليمان الغافقى (ت٢٤٠هـ) بحكم انتمائه إلى هذه المدينة يرتدى زيا مختلفا عن زى أهل قرطبة ، مما كان مدعاة ، لأن يتندروا عليه ويعايروه ، لكنه رد عليهم : " يا معشر الخصوم عيرتمونى بأنى بلوطى ، إنما أشهد على نفسى بأنى بلوطى ، عودوا لله صنليب لا تغلوا فيه " ثم حلف ألا يخاصمو عنده سنه[2].

على أن هذه المحلية كانت تتطرف إلى أن تعبر عن نفسها بالتعددية السياسية .

ترتبت على المحلية مشكلة أكبر هى التعددية السياسية ، فالأندلس (واسبانيا كذلك) لم تكن دولة واحدة فى فترات طويلة من تاريخها أو

١- الأحكام . تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، الخانجى ، ١٣٤٥هـ ، جـ١ ، ص٣١ .

٢- الخشنى : قضاة قرطبة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ص٦٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنها كانت ممزقة تحت سيادة إسمية في فترات أخرى ، والفترة النموذجية التي حظى خلالها الأندلس باستقرار سياسي واضح وهى فترة الخلافة (عصر الناصر والمستنصر والدولة العامرية تحديدا) لايتعدى فى مجمله مائة عام (٣٠٠ - ٣٩٩هـ) .

بعد الفتح بسنوات نشأت نواة الدولة النصرانية فى قاصية الشمال على يدى بلاى ، ولم تلبث أن امتدت حدودها على حساب المسلمين ، لتضم مع الدويلات النصرانية الأخرى مساحة تعدل ربع مساحة الجزيرة ، وحاولت الدولة فى عصر بنى أمية أن تتلمس حلا لهذه المشكلة عن طريق غزواتها التى كانت تتابع كل عام أو بضعة أعوام ، وعادة ما كانت هذه الغزوات تبدأ فى الربيع بعد ذوبان الثلوج ، وتنتهى قبل أن ينته الصيف، لذا كانت تسمى صوائف .

ولما كانت الجبهة بعيدة عن مركز الدولة الإسلامية بقرطبة ، فان هذه الدولة فى عصر الناصر وخلفائه ، صار لها جيشان ، جيش الحضرة ومستقره قرطبة ، وجيش الثغور ومستقره مدينة سالم Medina celi بالثغر الأوسط .

وأفادت هذه الغزوات فى تثبيت الحدود بين دار الإسلام ودار الحرب أحيانا ، وفى دفعها لحساب دار الإسلام فى أحيان أخرى[١] ، على أنه لدى الفرقة التى أصابت الأندلس فى عصر الطوائف بدأت هذه الحدود تتراجع لحساب دار الحرب .

١- وبخاصة فى عصر المنصور بن أبى عامر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس من شك فى أن الطبيعة الجغرافية لعبت دورا أساسيا فى أن صار هذا الصراع سجالا بين المسلمين والنصارى ، وفى كتاب الناصر بعد هزيمته فى الخندق Alhandega فى سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م يشير إلى "خنادق وعرة ومهاوى تتقاذف وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها "[١].

على أن هذه التعددية تتخذ نحوا " أكثر خطرا " داخل حدود الأندلس ذاتها ، فالعصبيات المحلية والشخصيات الكبيرة كانت تمكن لنفسها فى كثير من الأحيان ، وبخاصة فى مناطق الثغور وقد يتحد هؤلاء فى حالات معينة مع أعداء الدولة بالممالك النصرانية ، وهذه ظاهرة عامة متواترة ، صاحبت الوجود الإسلامى فى الأندلس ، بل إننا نشاهدها غير مرة فى عصر الخلافة ذاته [٢]، وهو أزهى عصور هذا الوجود .

ولايخفى أن الثوار المنتزين أفادوا بوعورة أقاليمهم ، وانقطاعها واكتفائها بنفسها لآماد متطاولة فضلا عن وفرة القلاع وحصانتها ، وتعذر سبل الوصول إليها ، كما أفادوا من المناخ الذى كان يهيىء الفرصة لحفظ مئونة المدن وطعامها لسنوات طويلة [٣].

١- ابن حيان : المصدر نفسه ، س٥ ، ص٤٤٢ .

٢- مثل ثورة محمد بن هاشم التجيبى ضد الناصر بسرقطة وتحالفه مع النصارى .

٣-البكرى : المصدر نفسه ص٨٨ ، العذرى : المصدر نفسه ص٢ وقد برع الأندلسيون فى ابتكار الوسائل لحفظ الطعام كالحبوب ، راجع فى هذا الشأن ابن العوام : الخلافة الباب السادس عشر (٦٦٠ - ٩٨٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الأمور التي لها دلالتها أن حرب العصابات Guerrilla تعبير أسباني ، يعني حربا صغيرة ، وقد برع أهل الأندلس (والأسبان أيضا) في هذه الحروب الصغيرة ، كانت سياسة الدولة إزاء هؤلاء الثوار أنها كانت تحارب الثائر إلى أن يقر بطاعتها ، فتبقيه حيث هو على أن تأخذ رهائنه ، وقد يكونوا بعض ولده ، فضلا عن قطيع من المال ، يؤديه كل عام (أو لا يؤديه) وأحيانا كانت تستنزله من حصونه ، فيأتي إلى قرطبة وتكرمه ، وقد يصير في قوادها وكبار رجالها .

عاشت البلاد ستين سنة في فتنة متصلة ، بدأت في عهد الأمير محمد ، وتمادت في عهد ولديه المنذور عبد الله ، حتى مطالع عهد الناصر [١] ، واستبد بالبلاد نيف وعشرون ثائرا ، اتخذ بعضهم هيئة الملوك ، وصار لهم قضاة وأصحاب شورى وكتاب عمل ، وانتجعهم الشعراء من أقطار الأندلس ، وبلغت الحال بالدولة إلى أن صارت سلطتها لا تتعدى في أحيان كثيرة أسوار الحضرة .

على أن الحال اختلفت في عصر الطوائف ، لسبب هو أنه لم تعد هناك دولة ، انما مجموعة من الدول نيفت على العشرين ، وتسمى أصحابها بالملوك .

يقول الشاعر [٢] :

١- تشغل هذه الفتنة معظم صفحات السفر الثالث من أسفار المقتبس لابن حيان.

٢- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص١٤٤ .

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد

وتمثل الطوائف حالا مثالية للتعددية ، دفعت إلى عدم التوحد أمام العدو النصراني الواحد ، وإلى انصراف كل مملكة لشأنها ، ولم يهتم الملوك بتهديد أذفونش لطليطلة ، رغما عن الدعوة التي عمت أقطار الأندلس نحو الاتحاد ، ولم يتم هذا الاتحاد ، إلا بعد أن فات الأوان وسقطت طليطلة ثم أنه تم على نحو واه ، مما دفع المرابطين إلى إزالة معظم الطوائف .

أما في عصر المرابطين ثم الموحدين ، فلم تعد الأندلس أبدا إلى الحال التي كانت عليها في عصر الخلافة ، وتناوشها الثوار في شرقيها وغربيها ، بل أن بعضهم كابن غانية عبر البحر إلى إفريقية ليتسبب في مشكلة مزمنة أسهمت في العصف بدولة الموحدين بعد ذلك [١].

وعندما صار الأندلس دولة صغيرة في غرناطة ، فانه لم يعدم حركات انفصالية بدأت منذ بداية عهدها [٢]، وتمادت حتى قريب من سقوطها [٣].

١- أنظر في شأن ثورة بني غانية القسم الثاني من العصر الثالث من دولة الإسلام في الأندلس لعنان .

٢- فتنة بني أشقيلولة بمالقة Malaga .

٣- فتنة أبي عبد الله الزغل في وادي آش .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بطبيعة الحال فان التعددية السياسية هذه ، كان لها أثرها الواضح بل الفادح فى نهاية دولة الإسلام فى الأندلس [(١)].

ومع أننا لانوافق دائما على مقولة أن العطاء الحضارى يتلازم طرديا مع الفرقة السياسية ، إلا أننا نلاحظ أن هذا العطاء بدأ على نحو أساسى مع بداية عصر الطوائف وما تلاه ، فكان الملوك يبنون العمائر الفخمة والمساجد والقصور والمدارس ، ويستقدمون العلماء والشعراء وغيرهم ويحسنون اليهم ، وصارت لبعضهم خزائن كتب عامرة ، بل أن منهم من شارك فى الحركة الفكرية .

فى عبارة قوية يقول المؤرخ المعاصر ابن حيان [(٢)]عن مجاهد العامرى صاحب دانيه :

١- ومن عجب أن التعددية السياسية فى الأندلس ، لم تعدم نظيرا لها فى اسبانيا النصرانية فقد رافقتها هذه التعددية منذ بداية تاريخها ، ويقارن كاسترو بين حال أسبانيا النصرانية ، فى منتصف القرن الثالث عشر وما تلاه بحال الأندلس فى منتصف القرن الحادى عشر وما تلاه وترك ذلك أثره على الريكونكيستا (حركة الاسترداد) التى تدنى زخمها حتى بداية عصر فرناندو وايسابيل op. cit. p . 47

ونشاهد اليوم آثار هذه التعددية فى أقاليم قطالونية وجليقيه واليكشنى ، حيث تتوافر ميول حادة نحو الاستقلال ، عبرت عن ذلك تعبيرا قويا ابان الحرب الأهلية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ م . أما البرتغال ، فقد حققت هذا الاستقلال منذ بعيد .

٢- ابن بسام : المصدر نفسه ، ق٣ م١ ص٢٣ ، وانظر أيضا ابن عذارى : المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص١٥٦ ، باختلاف يسير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب عصره لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن ، عنى بذلك منذ صباه وابتداء حاله، إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما يمارسه من الحروب برا وبحرا حتى صار فى المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن " كان جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة وأسراها صحابة ، لانتحاله العلم والفهم ، فأمه جلة العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة جملة وافرة وحلبة ظاهرة ... "

-8-

تركت الجغرافية أثرها الفاعل فى السمات العامة للشخصية الأندلسية، فصارت هذه الشخصية عنيفة وعنيدة ، وكان يؤجج من العنف والعناد معا مجاورة الأندلس لممالك نصرانية ، كان همها طرد المسلمين منذ البداية ، على أن هذه الطبيعة العنيفة العنيدة ، لم تكن تجعل للمعارك فى غالب الأحوال نتائج حاسمة على مسار الصراع بين المسلمين بعضهم وبعض ، وكذا بين المسلمين والنصارى ، ففى الخندق سحق جيش الناصر ، ونجا هو بأعجوبة فى نفر يسير ، وامتنع بعد ذلك عن أن يقود جيوشه بنفسه ، ومع ذلك ففى المعارك التالية للخندق ، قتل من النصارى ضعف من قتل من المسلمين [1] . ومن الممكن أن يقال الشىء نفسه عن معارك أخرى كبيرة كالزلاقة Sagrajas ، والأرك Alarcos ، وإلى حد ما العقاب .

١- أخبار مجموعة ، ص١٥٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك نجد لهذه الطبيعة صدى في ثورة بني غانية وحروبهم المتصلة مع الموحدين في الأندلس ، ثم مطاردتهم لهم في عقر دارهم بأفريقية ، فكانوا من أسباب ضعفهم وذهاب دولتهم .

وإذا كان الموريسكوس قد عاشوا في زمان ، كانت الأندلس قد ذهبت، فانهم حاربوا في جبال البشرات Alpujarras معركة يائسة ، دامت ثلاث سنوات ، وأفشلوا جهود عدد من القادة الأسبان ، حتى مقدم دون خوان Don Juan de Austria [1].

وفي غير أوقات الحرب كانت هذه الطبيعة تجد مجالا في الشغب على أصحاب السلطان وهو ما يتضح في تعرض عامة قرطبة للأمير الحكم (١٨٠هـ / ٧٩٦م - ٢٠٦هـ / ٨٢٢م) وجرأتهم عليه بالأذى والسباب وتصفيقهم بالأكف . وكانت ثورتهم ضده في سنة ٢٠٢هـ / ٨١٨م رهيبة، ألجأته - بعيد قمعهم - إلى نفيهم وهدم ربضهم ، واتخذ حيطته بعد ذلك ، فاستكثر من العبيد والخدم والسلاح ، يتناوبون الحراسة على أبواب قصره ، وعندما حل قسم من هؤلاء المنفيين بالأسكندرية ، أثاروا الفوضى بها ، وأقحموا أنفسهم في الصراعات بين الأجناد العرب إلى أن تم طردهم إلى اقريطش (كريت) [2].

١- Castro : op. cit , p . 57 .

٢- وردت أخبار هذه الثورة (أو الهيج بمصطلح العصر) في مصادر عديدة منها ابن القوطية : المصدر نفسه ص ص ٦٨ - ٦٩ ، ابن الأبار : المصدر نفسه جـ١ ، ص ص٤٤ - ٤٥ تر ١٠ ابن عذاري : المصدر نفسه جـ٢ ، ص ص٧٥ - ٧٦ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، جـ٢ ، ص١٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واجتمعت لدي المنصور بن أبي عامر خبرة بهذه الطبيعة ودرية ، وكان من عادته أن يطيل السهر ، وعندما سأله أحد فتيانه أجابه : يا شعلة !! حارس الدنيا لاينام ، إذا نامت الرعية لو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة [١].

استمرت ظاهرة الشغب هذه مصاحبة للشخصية الأندلسية عبر العصور، ويشير ابن سعيد [٢] إلى شطارة عامة قرطبة وكثرة شرهم ، وكيف كانوا يظهرون على المباني المشيدة ، ويفتحون الأغلاق الصعبة ، ويقتلون صاحب الدار ، وكيف كان أهل الأندلس - بوجه عام - يثبون على السلطان إذا وجدوا منه تهاونا ، ولا يعبأون بخيله ورجله ، وكذا كانت حالهم مع القضاة والولاة .

ويروي ابن سعيد [٣] عن أبيه ، أنه لما انفصل السيد أبو يحيى أخو السلطان يعقوب المنصور (٥٨٠هـ / ١١٨٤م - ٥٩٥هـ / ١١٩٩م) عن ولاية قرطبة سئل : كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل إن خففت عنه الحمل صاح ، وإن أثقلته صاح . ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ، وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة ، حتى كان عامتها شرا من عامة العراق ، وإن العزل عنها ، لما قاسيته من أهلها عند ولاية ، وإني إن كلفت العود إليها لقائل : لايلدغ المؤمن من جحر مرتين".

١- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، جـ٢ ،ص٧٦ ، ابن عذاري : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٨٩ ، باختلاف يسير .

٢- المقري : المصدر نفسه جـ١ ، ص٢١٩ - ٢٢٠ .

٣- المقري : المصدر نفسه جـ١ ، ص ص١٥٤ - ١٥٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإزاء التوتر العام الذى كان يسود الأرض والبشر كانت الشخصية الأندلسية موزعة بين التطرف فى اللهو وطلب متاع الدنيا ، وبين التطرف فى الزهد والانصراف عن هذا المتاع .

يقول المقرى (ت١٠٤١هـ) [١] " ومع كون أهل الأندلس سباق حلبة الجهاد ، إلى داعيه من الجبال والوهاد ، فكان لهم من الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد " .

عرف عن الأندلسيين حبهم للغناء ، وكان أهل بلنسية ينفقون الأموال الطائلة فى اقتناء المغنيات [٢] ، والموشحات انما وضعت لتغنى ، ومعظمها يدور فى موضوعات اللهو والخمر ووصف الطبيعة [٣] ، كما أن الخرجات [٤] تقال كلها تقريبا على لسان فتاة تتغزل فى فتى ، وتعلنه بحبه وشوقها ، وهذا لانظير له فى الشعر العربى كله [٥].

١- المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٩٠ .

٢- العذرى : المصدر نفسه . ص١٨ .

٣- أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٩ ، ص١٤٣ .

٤- وهى القفل (الجزء) الأخير من الموشحة .

٥- عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ، ص١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كان مالك - رضى الله عنه - أشد فقهاء السلمين على الخمر وشاربيها ، فان عددا من علماء الأندلس - وهم أساسًا مالكية - كانوا يذهبون فى الأشربة مذهب العراقيين [١].

يقول أحمد بن عبد ربه (ت٣٢٩هـ) صاحب العقد [٢]:

ديتنافي السماع دين مد سنى وفى شربنا الشراب عراقى

وعرف عن غير هؤلاء من قضاة الأندلس ، أنهم كانوا يتغافلون عن السكارى ويتغاضون، مثل القاضى محمد بن زياد اللخمى (ت٢٤٠هـ) [٣] والقاضى أحمد بن بقى بن مخلد (ت٣٢٤هـ) [٤] والقاضى محمد بن أبى عيسى (ت٣٣٩هـ) [٥]

ويعلق الخشنى (ت٣٦١هـ) [٦] على هذا بقوله: وما أتى عن القضاة فى هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكارى والتغافل لهم والدقة عليهم ،

١- ابن الفوضى : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٥ تر ١١٠٢ ، ص٢١ تر١١٤٩ .

٢-الثعالبى : يتيمة الدهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة الحسين التجارية ، ١٩٤٧ ، جـ٢ ، ص٩ .

٣- الخشنى : المصدر نفسه ، ص ص٥٨ - ٥٩ .

٤- المصدر نفسه ، ص ص١١٢ - ١١٤ .

٥- ابن خاقان : المصدر نفسه ، ص ص٢٦٥ - ٢٦٦ ، التباهى : المصدر نفسه، ص ص٦٠ - ٦١ .

٦- المصدر نفسه ، ص٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلا أعرف لذلك وجها من الوجوه ، يتسع لهم فيه القول ، ويقوم لهم به العذر ، إلا وجها واحدا ، وهو أن احد السكر - من بين الحدود كلها - لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم "

أما عن الزهد فانه وإن كان نزوعا طبيعيا فى النفس الإنسانية ، ويصدر أحيانا عن دواعي الشيخوخة ، فانه كان ظاهرة تتنامى طرديا ، مع تنامى ظاهرة الترف ، أو إذا حدثت نكبة سياسية فى الداخل ، أو هزيمة عسكرية فى الثغور ، ونتلمس ظاهرة الزهد هذه على نحو واضح ، عندما اختل أمر الأندلس واختلف ، مع بزوغ عصر الطوائف ، ونلاحظه فى شعر ابن العسال (ت٤٨٧هـ) وهو يبكى سقوط بربشتر ثم سقوط طليطلة ، وفى شعر السميسر ، الذى وصلت به الحال فى زهده إلى إساءة الظن بالناس وإيثار الابتعاد عنهم ، بل وهجائهم (١).

يقول (٢) :

تحفظ من ثيابك ثم صنها ... وإلا سوف تلبسها حدادا
وميز عن زمانك كل حين ... ونافر أهله تسد العبادا
وظن بسائر الأجناس خيرا ... وأما جنس آدم فالبعادا

١- راجع فى هذا الشأن إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر الطوائف والمرابطين ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٥ ، ص ص١٣٠ ، ١٣٥ - ١٧٩ .

٢- ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق١م ، ص٨٩٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا يخفى ما للزهد من صلة - فى بعض الأحيان - بالتصوف ، وللأندلس فيه باع كبير ، ويحضرنا مثال محى الدين بن عربى (ت٦٣٨هـ) ، وكتابه الفتوحات الملكية .

وإذا كانت البيئة تميل بطبيعتها إلى التعدد ، فانها تركت أثرها فى نزوع الأندلسى إلى الفردية ، والفردية العارمة تحديداً [١]، ونلمس ذلك فى سعى الأندلسى إلى تضخيم ذاته ، والأندلسيون مغرمون بتكبير الأسماء ، وهم عندما يريدون أن يصغروا الاسم بعد أن يكبروه ، يقولون عبدون وعبيديس ، وكان ممكنا أن يصغروا الاسم الأصلى فيصير عبيد ، وقد لاحظنا أن عبد الرحمن الناصر تلقب بالخلافة فى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٩م ، وكانت خلافته هذه تضم الأندلس فحسب ، ولم تكن خيله قد تطرقت بعد إلى المغرب [٢]، وفى مطالع القرن الخامس الهجرى تسمى بالخلافة أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام ، وصار يخطب لهم فى زمن

١- يذهب مينيديث بيدال إلى أن السبب فى استبداد قشتالة فيما بعد بسائر شبه الجزيرة ، أن الفردية كانت أظهر فى شعبها بين سائر الشعوب الاسبانية

op. cit . p. 179.

٢- نلاحظ ذلك أيضا فى أسبانيا النصرانية ، فقد تسمى أذفونش الثالث (٨٦٦ - ٩١٠م) ملك ليون بالإمبراطور العظيم Magnus imperator ولم يكن حجم مملكته يسمح بذلك ، كما أن حفيده أردن الثالث Ordono (٩٥١ - ٩٦٦م) دعا أسقف شنيتاقب بالحبر الأعظم للعالم بأسره .

Castro , op. cit , p . 109 , Pontife de todo el Orbe .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحد ، الأمر الذى اعتبره ابن حزم[١] "فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها " .

وتتصل البيئة الطبيعية بمفهوم الجمال ، فتعدد هذه البيئة ، يتنامى طرديا مع الإحساس بالجمال لدى سكان هذه البيئة ، ويعين على شحذ خيالهم ، مما كان يهيىء مناخا مواتيا لعملية الإبداع [٢]. على أن الابداع يشترط الفردية ، وكان للأندلسيين نصيب وافر فيها ، كما يشترط التشجيع ، وكان للحكام الأندلسيين نصيب وافر كذلك ، والمرابطون وهم - فى الأصل - بدو جفاة نهجوا ، بعد أن تأثروا بالحضارة الأندلسية ، نهج ملوك الطوائف في تعاملهم مع الأفراد المبدعين .

ويعبر الشعر تعبيرا قويا عن الإبداع ، ونلاحظ أن قرض الأندلسيين له ، كان ظاهرة عامة . ويقرر ابن بسام (ت٥٤٢ هـ) [٣] أنه يكاد لايخلو بلد من بلاد الأندلس من كاتب أو شاعر . وكان معظم أمراء الأسرة الأموية وخلفائها شعراء ، وهو مالا نلاحظه بالضرورة عند أسلافهم بالمشرق ، ويستغرب ابن حيان [٤] أن الأمير محمدا - على خلاف آبائه قبله وأعقابه بعده - لم يعز إليه قرض شيء من الشعر ، ويعد مروان بن

١- نقط العروس ، ص ص٨٣ - ٨٤ .

٢- عن علاقة البيئة الجغرافية بالخيال والفن انظر : جريفث تايلور (محرر) الجغرافية فى القرن العشرين ، ترجمة غلاب وأبى الليل ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب . ١٩٨٧ ، جـ٢ ، ص ص١٨٦ - ١٨٧ .

٣- المصدر نفسه ، ق٣ م١ ، ص٣٣ .

٤- المصدر نفسه ، س٢ ، ص٢٨٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الرحمن بن مروان بن الناصر (ت حوالي ٤٠٠ هـ) الذى يعرف بالشريف الطليق ، فى طليعة شعراء الأندلس المجيدين [١].

ونتلمس للطبيعة حضورا قويا فى الشعر الأندلسى ، وربما كان وصفها أهم موضوعات هذا الشعر ، وكثيرا ما كان شعراء الأندلس يربطون بين هذا الموضوع وموضوعات أخرى كالغزل [٢].

يقول المقرى [٣] :

«إنهم إذا تغزلوا من الورد خدودا ، ومن النرجس عيونا ، ومن الآس أصداغا ، ومن السفرجل نهودا ، ومن قصب السكر قدودا ، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ، ومن ابنة العنب رضابا»

وقد لعبت البيئة الطبيعية دورا أكبر فى نشأة فن جديد من فنون الشعر وهو الموشحات ، وتعد ابتكارا أندلسيًا [٤]، ومعظم ما وصل إلينا من موشحات ، يتصل بوصف الطبيعة على نحو مباشر .

على أن الإبداع عند الأندلسيين لم يتوقف عند حد الشعر ، فاننا نتلمسه فى مجالات أخرى ، ومنها نزوع الأندلسيين إلى المغامرة ، وتنسب

١- لمزيد من التفصيلات راجع : إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة ، ص ص١٠٦ - ١١٣ ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص ص١٩٣ - ٢١٥ ؛ جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥ ، ص ص١٢٤- ١٥٧ .

٢- المصدر نفسه جـ١ ، ص٣٢٣ .

٣-ابن بسام : المصدر نفسه ، ق١ م١ ص٤٦٩ ، ابن خلدون : المصدر نفسه ، جـ ٣ ص٣٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى عباس بن فرناس (ت٢٧٤هـ) ، اختراعات عدة ، كما اشتهر بمحاولته البدائية للطيران [١]، وعرف عن الأندلسيين شغفهم بالرحلة والسفر [٢] ، وكانت لهم موانى مخصوصة في بلاد المغرب ، وشهرة طبرقة ترجع فى الأساس إلى كثرة ورود مراكبهم إليها [٣]. ولدينا قصة أبى حامد الغرناطى (ت٥٦٥هـ) الذى أمضى سنوات عديدة فى أسفاره ، ولم تمنعه سنه العالية ، من معاودة هذه الأسفار مرة ومرة [٤]. ولدينا أيضا قصة الأخوة المغررين من أهل أشبونة Lisboa ومغامراتهم فى بحر الظلمات،فوصلوا إلى جزائر الخالدات (كانارياس) ثم آبوا إلى بلدهم[٥].

-9-

تتفرد الأندلس ، والحضارة الإسلامية بخصوصية ، ننوه هنا ببعض اصولها ، وهى الأصول الجغرافية .

نشأ عن الموقع الجغرافى المتطرف والمنعزل أن اتخذت الأندلس طريقا خاصا بها عن الدولة الاسلامية العامة ، أفضى - مع أسباب أخرى - إلى استقلال سياسى فى عهد الأموية ، ونزوع دائم إلى الاستقلال السياسى

١- ابن حيان : المصدر نفسه س ٢ ص ص٢٧٩ - ٢٨٧ ، المقرى : المصدر نفسه جـ٣ ، ص٣٧٤ .

٢- المقدسى : المصدر نفسه ، ص٢٣٦ .

٣- ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص٧٦ .

٤- راجع الدراسة الضافية للأستاذ حسين مؤنس فى تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص٣٠٣ - ٣٥٧ .

٥- الإدريسى : المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ص٥٤٨ - ٥٤٩ ، وانظر أيضا دراستنا لهذه القصة فى كتابنا " عن العرب والبحر " ، القاهرة ، مدبولى ١٩٨٩ ، ص ص٢٤ - ٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى عهود ما بعد الأموية ، كما أفضى أيضًا إلى استقلال مذهبى (مذهب مالك رضى الله عنه) ونزوع دائم إلى مناهضة غيره من مذاهب فقهية وعقدية وفلسفات .

على أن الموقع - من ناحية أخرى - - كانت له تداعياته ، فى أن صار للجهاد وجوده الناشط على الساحة الأندلسية ، وعلى الساحة الفكرة الاندلسية ، وأعان على أن يشعر الأندلسيون بالتوحد فى جزيرة تميل بطبيعتها إلى التعدد ، لكنه - فى سياق العام - أعان على أن يشعر الأندلسيون بتميزهم عن غيرهم من المسلمين وتمايزهم ، وكان لهذا الشعور الأخير آثاره السلبية فى أوقات الأزمات .

كذلك كان من تداعيات الموقع ، أن وقفت الأندلس - فى نهاية المطاف- وحيدة ، وحان لشمسها أن تغيب .

من ناحية أخرى تأثر النصارى فى دار الحرب بفكرة الجهاد ، ونشأت بينهم جماعات عسكرية دينية ، كان لها حضور واضح فى حركة (الاسترداد) ، بل أنهم تأثروا بفكرة التوحد المذهبى فظهرت عندهم عقيدة شنتياقب ، التى صاحبت صراعهم الدائب والدائم مع المسلمين .

داخل حدود الأندلس ذاتها ، جاور المسلمون أقواما يختلفون عنهم من وجوه عدة ، ودخلوا معهم فى علاقات كانت لها نتائجها فى بناهم الاجتماعية والثقافية ، والأهم هو أن هذه العلاقات أدت إلى تنامى العصبية للمكان - أى الوطن - على حساب العصبية للعرق ، مما أسهم فى بزوغ ما ندعوه بالشخصية الأندلسية ، وكان إحساس الأندلسيين العارم بهذه الشخصية سببًا فى النفور الذى وقع بينهم وبين الوافدين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليهم من بربر العدوه ، كما كان أيضًا سببًا فى تكريس مبدأ التسامح مع غير المسلمين ، داخل حدود الأندلس غالبًا ، وخارج حدوده أحيانًا ، وهيأ الفرصة للتعايش بين القوى السياسية - إسلامية ونصرانية- فى شبه الجزيرة . وجدير بالذكر ان مثلما انتقلت فكرة الجهاد من الأندلس إلى أسبانيا النصرانية ، فان فكرة التسامح انتقلت أيضًا ، ولم يصبح التعصب هو الطابع العام للسياسة الأسبانية إزاء الوجود الإسلامى إلا فى اخريات عهد هذا الوجود ، ويعود التعصب فى بعض أصوله إلى الصليبيين الوافدين بعد إخفاقهم بالمشرق .

وإذ كان الموقع المتطرف والمنعزل يدفع الأندلس إلى التوحد ، فان الموضع المتقطع دائمًا والمتناقض أحيانًا ، كان يدفع الأندلس إلى التعدد ، وترك ذلك أثره فى أن صار الاستقرار الإسلامى منذ بدايته غير متوازن ، مما هيأ الفرصة ، لأن تنشأ نواة نصرانية مُعادية فى قاصية الشمال توسعت - بعد - على حساب المسلمين .

الأخطر من ذلك ما أسفر عنه الموضع المتعدد من نزعة محلية ، تحققت داخل المجتمعات الأندلسية الصغيرة ، وأعان عليها ما كانت تواجهه هذه المجتمعات من مشكلات ، وأعان عليها أيضا صعوبة المواصلات بين بعضها البعض ، وبينها وبين المركز فى قرطبة (أوغيرها) ، وصار لكل مجتمع منها مدينته الحصينة (أو مدنه الحصينه) ، وإليها يتوجه شطر كبير - أو الشطر الأكبر - من انتماء أفراد هذا المجتمع .

كان لهذه المحلية حسناتها فى المنافسة بين المجتمعات الأندلسية فى مجالات شتى من الحضارة ، لكن كان لها سيئاتها فى بروز التعددية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسية ، التى عبرت عن نفسها فى ميول حادة إلى الاستقلال فى عهد الأموية ، والاستقلال ذاته فى عهود ما بعد الأموية ، مما أسفر - فى النهاية - عن نتائج فادحة على مسار الإسلام فى الأندلس .

التعدد أيضًا كان له دوره فى أن صارت الشخصية الأندلسية عنيفة وعنيدة ، مما كان يطيل فى أمد الصراعات السياسية ، ويدنى من وقعها فى الوقت نفسه ، ويكرس الميل إلى الشغب على أصحاب السلطان ، وتوزعت الشخصية الأندلسية بين التطرف فى اللهو والتطرف فى الزهد ، مع نزوع واضح إلى تضخيم الذات .

أخيرا فان الطبيعة الجغرافية بتعددها ، أعانت على شحذ خيال الأندلسيين ، وتعميق إحساسهم بالجمال ، وحفزهم إلى المغامرة والابتكار ، وهو ما نلمسه فى جوانب شتى من الحضارة الإسلامية بالأندلس ومنجزات هذه الحضارة .

***

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

ابن الأبار : أبو عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت٦٥٨هـ) .

١- التكملة لكتاب الصلة (جزئان) تصحيح السيد عزت العطار الحسينى ، مصر، ١٩٥٥ .

٢- الحلة السيراء (جزءان) تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى (ت٦٣٠هـ) .

٣- الكامل فى التاريخ (ثلاثة عشر جزءا) بيروت ، دار صادر ، ١٩٨٢ .

الأدريسى : الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحسنى (ت٥٦٠هـ).

٤- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (تسعة أجزاء) تحقيق تشيرولى ، وآخرين . روما - نابلولى ، ١٩٧٠ - ١٩٨٤ .

ابن اياس : محمد بن أحمد بن اياس الحنفى (ت بعد ٩٣٨هـ) .

٥- بدائع الزهور فى وقائع الدهور (ستة مجلدات) تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

ابن بسام : ابو الحسن على بن بسام الشنترينى (ت٥٤٢هـ) .

٦- الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة (ثمانية مجلدات)تحقيق إحسان عباس، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧- كتاب الصلة (قسمان)، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة،١٩٦٦ .

البكـــــري : أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن ايوب بن عمرو البكرى (ت٤٨٧هـ) .

٨- جغرافية الأندلس وأوروبا ، من كتاب المسالك والمهالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، بيروت ، دار الإرشاد للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

ابن تغرى بردى: أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي (ت٨٧٤هـ) .

٩- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر ، والقاهرة ، (ستة عشر جزءا) القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ .

الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى (ت٤٢٩هـ) .

١٠- يتيمة الدهر . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة الحسين التجارية ، ١٩٤٧ .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) .

١١- الاحكام فى أصول الأحكام (ثمانية أجزاء) تصحيح أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، الخانجى ، ١٣٤٥هـ .

١٢- جمهرة أنساب العرب ، ط٣ ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة، دار المعارف، مصر ، ١٩٧١ .

١٣- طوق الحمامة فى الألفة والألاف ط٣ ، تحقيق الطاهر أحمد مكى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

١٤- الفصل فى الملل ، والأهواء والنحل (خمسة أجزاء) تحقيق محمد ابراهيم نصر ، عبد الرحمن عميرة، جدة ، عكاظ ، ١٩٨٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٥- نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق شوقى ضيف ، فصلة فى مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، م١٣ ، جـ٢ ، ديسمبر ١٩٥١ .

الحميــــدى : أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله الأزدى (ت٤٨٨هـ) .

١٦- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) .

١٧- الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس . بيروت، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ .

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن على النصيبى (ت٣٦٧هـ) .

١٨- صورة الأرض (المسالك والممالك والمغاوز والمهالك) بيروت مكتبة الحياة ، ١٩٧٩ .

ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (ت ٤٧٩هـ) .

١٩- المقتبس من أنباء هل الأندلس .

السفر الثانى - تحقيق على مكى - بيروت ، دار الكتاب العربى ١٩٧٣ .

السفر الثالث - تحقيق اسماعيل العربى ، المغرب ، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠ .

السفر الخامس - تحقيق شالميتا ، صبح ، كورينطى ، مدريد ، المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، ١٩٧٩ .

قطعة من عهد الحكم المستنصر ، تحقيق عبد الرحمن على الحجى بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ .

ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي (ت٥٢٩هـ) أو (٥٣٥هـ) .

٢٠- مطمح الأنفس ، تحقيق محمد علي شوابكة ، بيروت ، دار عمار ١٩٨٣ .

الخشني : أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني (ت ٣٦١هـ).

٢١- قضاة قرطبة ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦

ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عب الله السلماني (ت٧٧٦هـ) .

٢٢- الاحاطة في أخبار غرناطة (أربعة اجزاء) ط٢ ، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة الخانجي ، ١٩٧٣ - ١٩٧٧ .

٢٣- تاريخ أسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام جـ٢ ، تحقيق أ . ليفي بروفنسال ، بيروت دار المكشوف ، ١٩٥٦ .

ابن خلدون : أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) .

٢٤- مقدمة ابن خلدون (ثلاثة اجزاء) ط٣ تحقيق علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٩ .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) .

٢٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ستة أجزاء) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٤٨ .

ابن دراج : أحمد بن محمد بن دراج القسطلي (ت٤٢١هـ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٦- ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق محمود علي مكي ، دمشق المكتب الاسلامي ، ١٩٦١ .

ابن سعيد : علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت٦٨٥هـ).

٢٧- المغرب في حلي المغرب (جزءان) ط٣ ، تحقيق شوقي ضيف القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ .

صاعد الأندلسي : صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي (ت٤٦٢هـ) .

٢٨- طبقات الأمم ط١ ، تحقيق حياة بو علوان ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٨٥ .

ابن عبد الملك المراكشي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي ، (ت هـ)

٢٩- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق محمد بن شريفة ، بيروت، دار الثقافة .

ابن عذاري : ابو محمد عبد الله بن محمد المراكشي (ت٧١٢هـ) .

٣٠- البيان المغرب في أخبار الأندلس ، والمغرب (أربعة أجزاء تحقيق ليفي بروفنسال ، كولان وبثي ميراندا ، أعاد نشره إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ .

العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت٤٧٨هـ)

٣١- نصوص عن الأدلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٦٥ .

ابن العوام : أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام .

٣٢- الفلاحة (جزءان) نشر بانكيرى ، مدريد ١٨٠٢ .

ابن الفرضى : ابو الوليد عبد الله محمد بن يوسف الازدى (ت٤٠٣هـ) .

٣٣- تاريخ علماء الاندلس (جزءان) الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .

ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت٣٦٧هـ) .

٣٤- تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الابيارى القاهرة دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٢ .

مجهول : ٣٥- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشر لافوينتى الكنترا مجريط ، مطبع ريدنير ، ١٨٦٧ .

المراكشى : محى الدين عبد الواحد بن على التميمى (ت بعد ٦٢١هـ) .

٣٦- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربى العلمى ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٤٩ .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت٣٤٦هـ) .

٣٧- مروج الذهب (أربعة أجزاء) تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٨٣ .

المقدسى : أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى (ت حوالى ٣٩٠هـ)

٣٨- احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ابريل ١٩٠٦ .

المقرى : شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١هـ) .

٣٩- نفح الطيب بن غصن الأندلس الرطيب (ثمانية أجزاء) تحقيق إحسان عباس، بيروت دار صادر ، ١٩٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد (ت٨٤٥هـ) .

٤٠- السلوك فى معرفة دول الملوك (أربعة أجزاء) تحقيق محمد مصطفى زيادة ، سعيد عاشور ، القاهرة ، دار الكتب .

النباهى : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) .

٤١- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة، دار الكتب المصرى ، ١٩٤٨ .

(ب) المراجع باللغة العربية :

الأهوانى : عبد العزيز : ١- الزجل فى الأندلس ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ .

تايلور : جريفث (محرر) : ٢- الجغرافية فى القرن العشرين (جزءان)، ترجمة محمد السيد غلاب ، محمد مرسى أبو الليل ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

جونثالث بالنثيا : انخل : ٣- تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ .

حمدان : جمال : ٤- بين أوروبا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٣ .

دى لوثينا : لويس سيكو : ٥- وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر ميلادى ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦١ .

الركابى : جودت : ٦- فى الأدب الأندلسى ، ط٤ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨- تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص٧ ، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٥ .

عنان : محمد عبد الله : ٩- دولة الإسلام في الأندلس ، (أربعة أجزاء) القاهرة ، الخانجي ، ١٩٦٩ .

كحيلة : عبادة عبد الرحمن : ١٠- أندلسيات ، القاهرة ، مدبولي ، ١٩٨٩ .

١١- عن العرب البحر ، القاهرة ، مدبولي ، ١٩٨٩ .

١٢- المعاهدون في الأندلس ، أطروحة لدرجة الدكتوراة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة ، غير منشورة (تحت الطبع الآن بأسم تاريخ النصارى في الأندلس) .

ليفي بروفنسال : (أ) : ١٣- الإسلام في المغرب ، والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة نهضة مصر ، ١٩٥٦ .

١٤- الحضارة العربية في أسبانيا ، ط١ ، ترجمة الطاهر أحمد مكي، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

مكي : الطاهر أحمد : ١٥- ملحمة السيد ، دراسة مقارنة ، ط٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

مؤنس : حسين : ١٦- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد معهد الدراسات الاسلامية ، ١٩٦٧ .

١٧- فجر الاندلس ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ .

هيكل : أحمد : ١٨- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ط٧، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

C . References in Foreign Languages :

Branigan , J . J & Jarrett , H . R :

1- The Mediterranean Lands . 2nd edition . London , Macdonald & Evans , 1975 .

2- Cambridge economic history of Europe (6 vols) , 1971 .

Castro , Ame`rico :

3- Espana en su historia , Cristianos , Moros Y Judios . Buenos Aires , Editorial Losada , 1948 .

Dozy , R :

4- Recherches sur l`histoire et la litte' rature de l`Espaqne Pendant le moyen age (2 vols) t roiseine edition Leiden , Brill , 1881 .

Imamuddin , S . M . :

5- Some aspects of the Socio - Economic and Cultural history of Moslem spain . Leiden , Brill , 1965 .

Levi - Provencal, E .

6- Histoire de L`Espaqne Musulmane (3 Vols) Paris , Leiden , Brill , 1965 .

Leivermore , H . V :

7- The Origins of Spain and Portugal . London , George Allen & Unwin , 1971 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Mene'dez Pidal , Ramon :

8- The Spaniards in their hisotry , trans by Walter Starkie . London , Hollis & Carter , 1950 .

O'Callaghan , J . F :

9- A history of Medieval Spain . Cornell Univ . Press , 1975 .

Simonet , D . Francisco Javier :

10- Historia de Los Moza'rabes de Espana . Madrid 1897 - 1903 .

دوريات :

العبادى : أحمد مختار

١- الإسلام فى أرض الأندلس، أثر البيئة الأوربية.مجلة عالم الفكر، م ١٠ ع٢ ، ١٩٧٩ ، ص ص٥٩ - ١١٠ .

مكى : محمود على

٢- التشيع فى الأندلس . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد م٢ ع١ ، ١٩٥٤ ، ص ص٩٣ - ١٤٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتب أخرى للمؤلف

١- صقر قريش ، عبد الرحمن الداخل : القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٩٦٨ (اعلام العرب ٧٦) .

٢- عن العرب والبحر ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣- أندلسيات ، القاهرة ١٩٨٩ .

٤- تاريخ النصارى فى الأندلس ، القاهرة ١٩٩٣ .

٥- الزُط والأصول الأولى لتاريخ الغجر ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

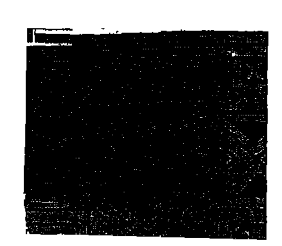
رقم الإيداع ٩٦/٢٦١٦

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 42 - 0

طبع بمطابع دار روتابرينت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES